سير المتصوفين المسلمين
في جبل لبنان

من القرن
الأول إلى السابع هجري — السابع إلى الرابع عشر ميلادي

يوحنا صادر
دكتور في اللاهوت
دكتور في علم الآثار وتاريخ الفن

دار صادر
بيروت

سير المتصوفين المسلمين

A
297.4
S125s
c.1

A
297.4
S125s

سير المتصوفين المسلمين في جبل لبنان

من القرن

الأول إلى السابع هجري — السابع إلى الرابع عشر ميلادي

يوحنا صادر

دكتور في اللاهوت

دكتور في علم الآثار وتاريخ الفن

دار صادر

بيروت

LAU Beirut campus
15 DEC 2011
Riyad Nassar Library
RECEIVED

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1425هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات
أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ،
أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

دار صادر
تأسست سنة 1863

ص . ب ١٠ بيروت ، لبنان
© DAR SADER Publishers
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4.910270
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

Siyar Al-Mutaṣawwifīn
(Youhanna Sader)

p. 96 - s. 17.5x25 cm
ISBN 9953-13-088-4

تمهيد

إنّ هذه الدراسة عن مسلك المتصوّفين المسلمين في جبل لبنان ، وعلى ساحل بحر الشام تهدف إلى اكتشاف محبة الله عند هؤلاء الناس ، والمسالك التي بها كانوا يعبّرون عن هذه المحبة . فقد عرضتُ هذه الأفكار للمرة الأولى ، ولكن بإيجاز في المؤتمر الثامن للتراث السرياني الذي انعقد في دير مار الياس – انطلياس عام 2002 والذي كان موضوعه: «الله رحمة . الله محبة» ، وذلك في محاضرة تحت عنوان «تعبير العشق الالهي عند متصوفيّ جبل لبنان» ، ونشرت لاحقاً في أعمال المؤتمر[1] .

وكانت رغبتي أن أتعمّق أكثر في هذا الموضوع . لذا عمدتُ لمطالعة ما تيسّر من مؤلفات عن أهل التصوّف ، واطّلعتُ على حياة المتصوّفين ، وأخبارهم العجيبة ، وأقوالهم البليغة ، لكنني شئت أن أفردَ للمتصوّفين المسلمين الذين سكنوا جبل لبنان أو سواحل البحر ، دراسة خاصة لِما اكتشفت عندهم من روحانية مميّزة ، وتعلّق داخلي عميق بهذا الجبل المقدس[2] .

---

1 «الله رحمة . الله محبة» ، أعمال المؤتمر الثامن – التراث السرياني ، جزء 2 ، مركز الدراسات والأبحاث المشرقية – الرهبانية الانطونية المارونية ، 2003 ، 165–187 .

2 الجبل المقدس تسمية شاعت عند بعد المتصوفين في تسمية جبل لبنان .

لا يغرب عن بالنا أنهم لم يكونوا لوحدهم، بل كانوا متواجدين كما يشهد التاريخ، مع مئات من الرهبان المتوحّدين الذين لا تزال كهوفهم المتحوّلة إلى معابد تشهد لحضورهم[1]. إنه لحدثٌ مهمّ جداً في تاريخ لبنان، عيشُ المسلمين والمسيحيين سوية، وعلى مدى طويل، بغية الانصهار في بوتقةِ الإيمان بالله ومحبته، وفي محبة بعضهم بعضاً.

فقسمتُ الدراسة إلى **قسمين**:

قسم يتعلق بسيرة المتصوّفين.

و**قسم** آخر يتعلق بسيرة أولياء وأعلام السيّاح المذكورين في جبل لبنان، هؤلاء الذي نقلوا النا سيرة أولياء الله. عسى أن تتابع هذه الأبحاث فنكتشف مع الوقت سيرة متصوّفين آخرين سكنوا هذا الجبل. وليرحمنا الله بدعائهم...

المؤلف

1 راجع لوحة رقم واحد.

كتابات عربية في مغارة الصليب في وادي قنوبين

العشق الإلهي عند متصوّفي جبل لبنان المسلمين

مقدمة التحقيق

يتحدّث ابنُ الجوزي في كتابه «صِفَةُ الصفوة» عن ثلاث فئاتٍ من المتصوّفين في جبل لبنان : فئة المصطفين ، أمثال علي الجرجرائي . وفئة عقلاء المجانين ، أمثال شيبان المصاب ، وعباس المجنون ؛ وفئة المصطفين من المجهولين الأسماء من عبّاد جبل لبنان وجبال الشام وسواحل بلاد الشام (طرابلس وصيدا وصور) . يقول ابن الجوزي : «قد طِفْتُ الأرضَ بفكري شرقاً وغرباً ، واستخرجتُ كلَّ مَن يصلحُ ذكره في هذا الكتاب من جميع البقاع . وربَّ بلدةٍ عظيمة لم أرَ فيها ، مَن يصلح لكتابنا . وقد حصرتُ أهلَ كلِّ بلدة فيها وترتيبهم على طبقاتهم : أبدأ بمن يُعرف اسمه من الرجال ، ثم أذكر بعد ذلك مَن لم يُعرف اسمه . فإذا انتهى ، ذكرتُ عابدات ذلك البلد على ذلك القانون . وربّما كان في أهل البلد من عقلاء المجانين مَن يصلحُ ذكرُه من الرجال والنساء ، فأذكره»[1] .

لكنَ هناك عُبّاداً لم يذكرهم ابن الجوزي من الذين أقاموا في لبنان ، وقد وَرَدَ خَبَرُهم عند غيره من المؤرّخين أمثال ابن الزيّات[2] والسرّاج[3] والإمام

---

1 انظر : صفوة الصفوة ، (1/ 22-23) .

2 كما في «التشوّف في رجال التصوّف» .

3 كما في «مصارع العشاق» .

الغزالي[1] . وأمّا عند الرحّالة العرب أمثال ابن بطوطة ، والقزويني ، والمقدسي وابن جبير ؛ فعدد العبّاد في جبل لبنان ، وعلى ساحل البحر يكاد لا يحصى .

يقول ابن بطوطة[2] : «ثم سافرتُ إلى الجبل الأقرع ، وهو أعلى جبل بالشام . وأوّلُ ما يظهرُ منها من البحر ، وسكّانه التركمان ، وفيه العيون والأنهار . وسافرتُ منه إلى جبل لبنان وهو . . . لا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهّاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعةً من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى مِمَّن لم يُشتهر اسمه» .

وأمّا القزويني فيشير إلى أنّ «من خواصّ الشام أن لا تخلو عن الأولياء الأبدال الذين يرحم الله ويعفو بدعائهم ، لا يزيدون على السبعين ولا ينقصون عنها . . . وبها جبل لبنان ، يأوي إليه الأبدال ، لا يخلو عنهم أبداً لما فيه من القوت الحلال»[3] وهذا ما يؤكّده ياقوت الحموي عندما يخبر : «أن في الجبل المسمّى بلبنان فيه يكون الأبدال من الصالحين»[4] . أمّا المقدسي فيقول : «أمّا جبل لبنان فهو متصل بهذا الجبل – أي جبل صدّيقا – كثير الأشجار والثمار المباحة ، وفيه عيونٌ ضعيفةٌ يتعبّد عندها أقوامٌ قد بَنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات»[5] . وفي ترجمة أخرى يقول المقدسي : «إنهم يتقوّتون بشيء يُقال له البلّوط على مقدار الثمر ، عليه قشرٌ وهو مرٌّ إلاّ أنهم يلقونه في الماء حتى يحلو ، ثم ، إذا جفَّ طحنوه وخبزوه وأخلطوا عليه شيئاً

1 كما في «أحياء علوم الدين» .
2 انظر : رحلة ابن بطوطة ، طبعة دار صادر ، ص49 .
3 انظر : آثار البلاد وأخبار العباد ، 208 .
4 انظر : معجم البلدان (11/5) .
5 كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، (188–189) .

من شعير ينبت عندهم . مباح» . قال زرقان أخو أبي النون : «إن أحببتم أن تكونوا أبدالاً فأحبّوا ما شاءَ الله ، ومن أحبَّ ما شاءَ الله ، لم تنزل به مقادير الله وأحكامه شيئاً إلاّ أحبّه»[1] .

مَن هم الأبدال ؟

يطيب لي أن أوضّح معنى كلمة «أبدال» وهويّة هؤلاء المتصوّفين . قال رسول الله ﷺ بشأنهم : «خيار أمّتي في كلّ قرن خمسمائة ، والأبدال أربعون . كلّما مات رجلٌ أبدلَ الله عزّ وجلّ من الخمسمائة مكانه وأدخلَ من الأربعين مكانهم» . قالوا : «يا رسول الله دلّنا على أعمالهم ؟» . قال : «يعفون عمّن ظلمهم ، ويحسنون إلى مَن أساءَ إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله عزّ وجلّ»[2] . وعن أبو عبيد البسري قوله بعدما التقى بمتصوّف عاشق في الكلام ، مات بعد أن شهد لحبّه : «فبينا أنا على ذلك إذا أنا بجماعة فقالوا : «ما فعل الفتى ؟» فكنيت عن ذلك . فقالوا : «ارجع فإنّ الله قد قبضه» . فقلت لهم : «من هذا الرجل ومن أنتم ؟» . قالوا : «ويحك ! هذا رجل به كان يمطر المطر . . .» قلت : «ممّن أنتم ؟» قالوا : «نحن السبعة المخصوصون من الأبدال» . قلت : «علّموني شيئاً» . قالوا : «لا تحبّ أن تعرف ، ولا تحبّ أن يُعرف أنّك ممّن لا يحبّ أن يُعرفَ»[3] .

أمّا كيف يتمّ اختيارهم من قِبل الله ؟ عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله عزّ وجلّ في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ،

1 انظر : طبقات الأولياء ، 179 .
2 انظر : حلية الأولياء ، (93/1) .
3 انظر : حلية الأولياء ، (175/10–176) .

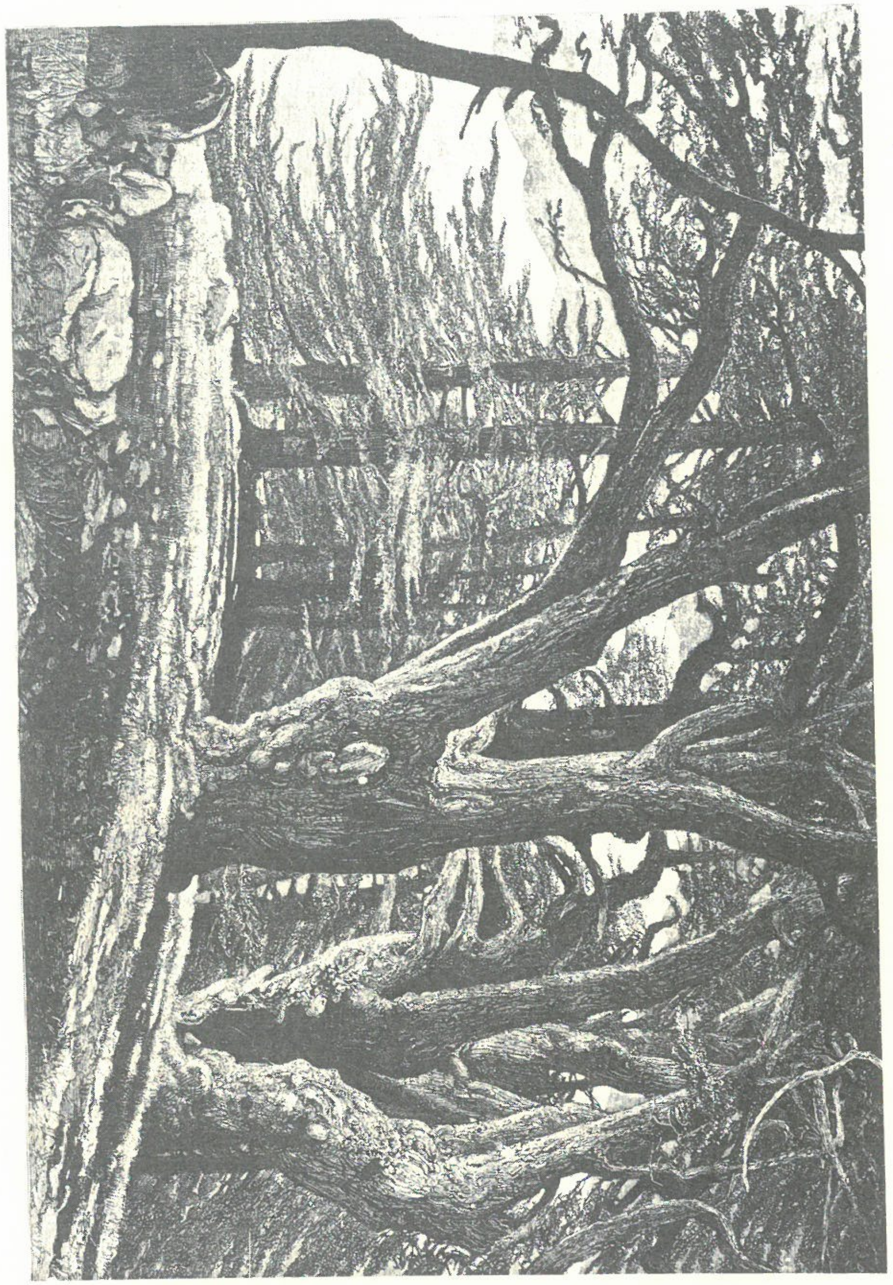

الأرز

ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ، ولله تعالى في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام ، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل عليه السلام ، ولله تعالى في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ، ولله تعالى في الخلق واحد قلبه على قلب إسرائيل عليه السلام ، فإذا مات الواحد أبدل الله عزّ وجلَّ مكانه من الثلاثة ، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله تعالى مكانه من الخمسة ، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة ، وإذا ماتَ من السبعة ، أبدل الله تعالى مكانه من الثلاثمائة ، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة . فيهم يُحْيي ويميت ، ويمطر وينبت ، ويدفع البلاءَ» . قيل لعبدالله بن مسعود : «كيف بهم يُحيي ويميت ؟» . قال : «لأنّهم يسألون الله عزّ وجلّ إكثار الأمم فيكثرون ، ويدعون على الجبابرة فيُقصمون ، ويستسقون فيسقون ، ويسألون فتنبت لهم الأرض ، ويدعون فيدفع بهم أنواعَ البلاء»[1] .

جبل لبنان وتحديده جغرافياً في زمن المتصوّفين

في دراستي عن «التعبير العشقي عند متصوفي جبل لبنان» مدينٌ أنا للعلاّمة الأب ميشال حايك الذي في مقال له تحت عنوان : «**لبنان الجبل المقدّس عند المسلمين**»[2] ، أدخلني إلى هذه الفسحة التاريخية الفريدة ، وهي مجهولة من الأغلبية الساحقة مسلمين ومسيحيين ، وغائبة للأسف عن ذاكرتنا التاريخية ، وضائعة في الغُفليّة . يقول الأب ميشال حايك في مطلع مقاله : «شاعَ أن ساحلَ لبنان للمسلمين ، وأن الجبل هو ملجأ المسيحيين ، وهي إشاعةٌ إن صحَّ

1 انظر : حلية الأولياء ، (40/1) .

2 انظر : مجلة «اللقاء» عدد 4 ، لبنان 1988 ، 52–69 .

بعضها ، فالبعض الآخر تبدّده النصوص . . . إنّ جبل لبنان هو الموعد الروحي لجميع الأولياء من المسيحيين والمسلمين . . . وجبل لبنان أكبر من اسمه الحالي ، إنه جزءٌ من بلاد الشام . . ولكنه هو هو كلّ جبالها حتى يجيز للشاعر أن يجعله بدلاً من جميعها فيقول :

وجاورِ جبالَ الشام لُبنانَ إنَّها   معاونُ أبدالٍ إلى مستوى العَرْجِ[1]

ثمّ في مجرى دراسته ، يقدّم نماذج رائعة عن متصوفين مسلمين ومسيحيين تعبّدوا في جبال لبنان أو ساحوا فيه رغبة منهم أن يلتقوا بهؤلاء الأبدال والزهّاد والصالحين ، تاركاً لنا لذّة التوغّل في تاريخ أولياء الله ، واكتشاف آخرين أيضاً مغمورين في بطون تواريخ الصوفية .

ومن أجمل النصوص التي نقرأها في «رحلة ابن جبير» عن لبنان جبل التآخي الإسلامي المسيحي ما يلي : «ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان ، إذا رأوا فيه بعض المنقطعين (إلى الله) من المسلمين جلبوا لهم القوتَ وأحسنوا إليهم . ويقولون : «هؤلاء ممّن انقطع إلى الله عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم» . «وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطّردة ، والظلال الوافرة ، وقلّما يخلو من التبتُّل والزهّادة»[2] .

نصوص تاريخية وكتابات جدارية

في دراستي هذه سأتكلّم عن نصوص تاريخية دون التعرّض لدراسة نقديّة ، إذ إننا نجد غالباً الخبر نفسه عند المؤرّخين متلوّن الترجمة .

لكننا إلى جانب النصوص العديدة المتوفّرة ، عثرنا على كتابات باللغة

1 انظر : مجلة «اللقاء» عدد 4 ، لبنان 1988 ، 52 .

2 انظر : رحلة ابن جبير ، 259–260 .

العربية على جدران الكهوف والمغائر المعلّقة على سفح جبل الوادي المقدّس شمالي لبنان[1] ؛ وأشهرها تلك الموجودة في مغارة دير الصليب ، في سفح بلدة حدشيت[2] . ذلك أننا عندما نعبر الباب إلى قسم المغارة المتحوّل إلى معبد ذي حنيتين مدبجتين بالرسوم المقدّسة ، نجد على الجدارين الأيمن والأيسر كتابات عربية لا تُمحى ، وهي لا تمتّ بصلة إلى الكتابات الحديثة التي يرسمها الزوّار . فهي مكتوبة ضمنَ مربّعات ذوات أُطر حمراء ، بعضها متقنٌ كأنه صنع يد ماهرة ؛ غير أنّها تشوّهت مع الزمن ؛ نلتقط منها بعض كلمات مثل «الله» أو «الله أكبر» أو «علي» . ومن المحتمل أن يكون صاحبها إمّا من المتعبّدين وإمّا من السيّاح الذين كانوا يأمّون جبل لبنان للبحث عن هؤلاء وتدوين أخبارهم ، أمثال ذي النون ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي بكر الورّاق ، وأبي سعيد الخرّاز وسواهم .

مظهر المتصوفين ومسلكهم

صنّف ابن عربي هذا النوع من المتصوّفين في طبقة العبّاد والسيّاح وأولياء الله ، فيقول : «من هؤلاء ، المنقطعون بالجبال والشعاب والسواحل وبطون الأودية ويسمّون السيّاح . . دموعهم في محاريبهم ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وتضرُّعاً»[3] .

وعن مظهرهم الخارجي شهادتان من عاشقين اثنين من جبل لبنان . قال أبو

1 الوادي المقدس – قنوبين لفظة من أصل يوناني تعني الحياة المشتركة ، وتدل على دير كان لقرون عديدة مركز للبطاركة الموارنة واشتهر بالحياة النسكية والنسّاك .

2 حدشيت : قرية لبنانية في قضاء بشري وتعلو عن سطح البحر 1400م .

3 انظر : الفتوحات المكّية ، (17/2) .

عبد الرحمن المغازلي : «قال رجل ببلاد الشام في بعض تلك السواحل : «لو بكى العابدون على الاشفاقِ حتى لم يبقَ في أجسادهم جارحة إلاّ أدّت فيها من الدم والوَدَكِ (الدسم من الشحم واللحم) دموعاً جاريةً ، وبقيتِ الأبدانُ يبساً خاليةً ، تتردّد فيها الأرواحُ إشفاقاً ووجلاً من يوم تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، لكانوا محقوقين بذلك ، ثمّ ، غشي عليه»[1] . وإسرافيلُ المغربي قال : «سمعت ذا النونِ يقول : «سمعتُ بعض المتعبّدين بساحل بحر الشام يقول : «إنّ لله تعالى عبّاداً عرفوه يقين المعرفة فشمّروا وقصدوا إليه . احتملوا فيه المصائبَ لما يرجون عنده من الرغائب . صحبوا الدنيا بالأشجان ، وتنعّموا فيها بطول الأحزان ، فما نظروا إليها بعين راغب ، ولا تزوّدوا منها إلاّ كزاد الراكب ، خافوا البيات (الموت) فأسرعوا ورجوا النجاة فأزمعوا ، بذلوا مُهُجَ أنفسهم في رضى سيّدهم ، نصبوا الآخرة نصب أعينهم وأصغوا إليها بآذان قلوبهم . فلو رأيتهم ، لرأيتَ قوماً ذبُلاً شفاههم ، خمُصاً بطونهم ، حزينةً قلوبهم ، ناحلةً أجسادهم ، باكيةً أعينهم ، لم يصحبوا التعليل والتسويف ، وقنعوا من الدنيا بقواتٍ خفيف ، لبسوا من اللباس أطماراً بالية ، وسكنوا من البلاد قَفراً خالية ، وهربوا من الأوطان واستبدلوا الوحدة من الإخوان . فلو رأيتهم لرأيت قوماً قد ذبحهم الليل بسكاكين السهر ! وفَصَلَ الأعضاء منهم بخناجر التعب ، خُمْصاً لطول السُرى ، شُعْثاً لفقد الكرى ، قد وصلوا الكلالَ بالكلالِ (التعب بالتعب) وتأهّبوا للنقلة والارتحال»[2] .

كانوا يلبسون من اللباس أطماراً رثّةً على مثال الشاب الذي التقى به

1 انظر : صفة الصفوة ، (503/2) .
2 انظر : المرجع نفسه ، (503/2) .

محمد بنُ حسّان ووصفه[1] أو سُلامة (ثوباً بالياً)كالذي يذكره أبي الحارث الأولاسي[2] أو جبة صوف تسمّى زرمانقة كالتي يصفها ابن المبارك الصّوري على عبّاس المجنون ، أو كالتي كان يلبسها زرقان أخو ذي النون المتعبّد في جبل لبنان[3] .

منهم من كان يلبس مرقّعة ويسيح على ساحل بحر الشام[4] أو خرقة كالتي كانت على عابد آخر أخبرنا عنه أبو الجعد السائح[5] أو مئزراً شبه لون الورس .

أمّا طعامهم فلا نعرف عنه الشيء الكثير سوى ما أخبرنا إيّاه المقدسي من البلّوط والشعير وثمار الشجر ونبات الأرض ، وما كان يحمله إليهم النصارى المجاورون لجبل لبنان كما يخبر ابن جبير .

1 انظر : صفة الصفوة ، (473/2) .
2 انظر : المرجع نفسه ، (484/2) .
3 انظر : الحايك ، مجلة «لقاء» عدد 4 لبنان ، 1998 ، 62 .
4 انظر : صفة الصفوة (502/2) .
5 انظر : الحايك ، مجلة «اللقاء» عدد 4 لبنان ، 1998 ، 66 .

القسم الأول

مناحي العشق عندهم

هؤلاء القوم في جبل لبنان ، أو على ساحل البحر كانوا جميعاً من عشّاق الله ؛ يركّزون حبّهم عليه تعالى وحده دون سواه ، مبتعدين قدر الإمكان عن الناس ومتوغّلين في شعاب الوديان ، وشقوق الأرض .

غير أننا نلاحظ أن كلّ واحد منهم تميّز بمنحى من مناحي الحبّ لتلتقي هذه المناحي جميعها في مفهوم للحبّ متكامل . وهذه المناحي التي نلاحظها ، هي تعبير عن العشق الإلهي أو مظهرٌ من مظاهره ، طبقاً للحالة التي يوجد فيها العاشق . يصنّفها الإمام القشيري بين المقامات أو بين مدارج أرباب السلوك . ويذكر الغزالي بعضاً منها في «إحياء علوم الدين» وهي : الشوق والهوى ، والنحول ، والذبول ، والجود ، والحزن ، والأنس ، والزهد ، والتصوّف ، والغيرة ، والخوف ، والفقر ، والمراقبة ، وأخيراً الاشتياق .

وقد جمع المؤرّخون السيّاح أبياتاً شعريةً أو أقوالاً يعبّر بها هؤلاء المتصوّفون عن عشقهم لله أو تشير إلى مناحي الحبّ الذي أخذوا به . فنورد هنا الأخبار التي نقلها عنهم السيّاح ، محاولين اقتطاف هذه التعابير وشرحها كما وردت في مصطلحات أهل التصوّف ، فندخل هكذا في عالم متصوّفي جبل لبنان وسواحله ، ونغوص في استيعاب أسرار زهدهم وعلاقتهم بالله عزّ وجلّ .

الباب الأول ـ الشوق والهوى

إن المعروفين بهاتين الصفتين في جبل لبنان هم شيبانُ المولّه أو المُصاب ، وعبّاسُ المجنون ، وزرقان أخو ذي النون ، وشابٌ على ساحل بحر الشام .

1 ـ شيبان المولّه أو المصاب

عن محمد بن أحمد بن سلمة قال : حدّثني سالم قال : «بينما أنا سائر مع ذي النون في جبل لبنان إذ قال لي : مكانك يا سالم حتى أعود إليك . فغابَ عنّي في الجبل ثلاثة أيام وأنا أنتظره ، إذا هاجت عليّ النفس أطعمتها من نباتِ الأرض وسقيتها من ماء الغدران . فلمّا كان بعد الثالث رجع إليّ متغيّر اللون ، ذاهب العقل ؛ فقلت له بعد أن رَجعت إليه نفسه : «يا أبا الفيض أسَبُعٌ عارضك؟» فقال : لا . دعني من تخويف البشرية ، إنّي دخلت كهفاً من كهوف هذا الجبل فرأيت رجلاً أبيض الرأس واللحية ، أشعثَ ، أغبرَ نحيفاً نحيلاً كأنّما أُخرج من قبره ، ذا منظرٍ مهولٍ وهو يصلّي . فسلّمت عليه بعدما سَلَّم ، فردّ عليّ السلام وقام إلى الصلاة ، فما زال راكعاً وساجداً حتى صلّى العصر واستند إلى حجر حذاء المحراب يسبّح ، لا يكلّمني . فبدأته بالكلام فقلت له : رحمك الله توصيني بشيء! ادعُ الله عزّ وجلّ لي بدعوة؟ فقال : يا بنيّ آنسك الله تعالى بقربه . ثمّ سكت . فقلت : زدني . فقال : يا بنيّ ، من آنسه الله بقربه أعطاه أربع خصال : عزّاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنى من غير مال ، وأنساً من غير جماعة .

ثمّ شهق شهقة فلم يفق إلاّ بعد ثلاثة أيام حتى توهّمتُ أنّه ميت . فلمّا كان بعد ثلاثة أيام قام فتوضأ من عين ماءٍ إلى جنب الكهف وقال لي : يا بنيّ كم فاتني من الفرائض؟ صلاةٌ أو صلاتان أو ثلاث؟ قلت : قد فاتتك صلاة ثلاثة أيامٌ بلياليهنّ . فقال :

إنّ ذكرَ الحبيب هيّجَ شوقي ... ثمَّ حبُّ الحبيبِ أذهلَ عقلي

وقد استوحشت من ملاقاة المخلوقين ، وقد أنست بذكر ربّ العالمين ، إنصَرف عنّي بسلام . فقلت له : يرحمك الله ، وقفت عليك ثلاثة أيام رجاء الزيادة . وبكيت . فقال : «أحبب مولاك ولا تُرد بحبّه بدلاً . فالمحبّون لله تعالى هم تيجان العبّاد وعلم الزهّاد ، وهم أصفياء الله وأحبّاؤه» .

ثمّ صرخ صرخةً فحرّكته فإذا هو قد فارق الدنيا . فما كان إلاّ هنيهة وإذا بجماعة من العبّاد منحدرين من الجبل حتى واروه تحت التراب . فسألتُ : ما اسم هذا الشيخ؟ قالوا : شيبانُ المصاب . قال سالم : فسألتُ أهل الشام عنه فقالوا : كان مجنوناً ، خرج من أذى الصبيان . قلت : تعرفون من كلامه شيئاً؟ قالوا : نعم ، كلمة واحدة كان يغنّي بها إذا ضجر : إذا بك لم أُجنّ يا حبيبي فبِمَن! . قال سالم : فقلت : عُمِّيَ والله عليكم»[1] .

2 ـ زرقان أخو ذي النون

لعلّها أخوة مؤاخاة لا نسب كما قال السلمي ، من أقرانه وجلّة رفقائه ، صاحب سياحة . كان بجبل لبنان من ساحل دمشق .

حكى عنه يوسف بنُ الحُسين الرازي ، قال : بينا أنا في جبل لبنان أدور ، إذْ

1 انظر : صفة الصفوة (2/485–486) ؛ وروضة التعريف بالحبّ الشريف ، لسان دين الخطيب ، 681–682 .

عجلتون

بصرتُ بزرقانَ أخي ذي النون ، جالساً على عين ماءٍ عند العصر وعليه زرمانقة شَعر . فسلّمتُ عليه وجلست من ورائه . فالتفتَ إليّ وقال : ما حاجتك؟ قلت : بيتين من شِعرٍ سمعتهما من أخيك ذي النون ، أعرضهما عليك . فقال : قل ! فقلت : سمعت ذا النون يقول :

قد بقينا مذبذبين حيارى — حسبُنا ربّنا ونعم الوكيلُ
فدواعيَ الهوى تخفّ علينا — وخلاف الهوى علينا ثقيلُ

فقال زرقان : لكنّي أقول :

قد بقينا مدلّهين حيارى — حسبُنا ربّنا ونعم الوكيلُ
حيثما الغور كان ذلك منّا — وإليه في كلّ أمرٍ نحيلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المَقدسي ، فقال : «رحم الله ذا النون ! رجع إلى نفسه فقال ما قال ، ورجع زرقان إلى ربّه فقال ما قال» .

وقال زرقان : «لمّا أقبلَ ذو النون منبج ، استقبله الناس ، فخرجت فيهم وأنا صبيّ . فوقفت على القنطرة ، فلمّا رأيته أقبل ، وحوله قومٌ من الصوفية وعليهم المرقعات ، ازدريته ، فنظر إليّ شزراً وقال : يا غلام ! إن القلوب إذا بَعُدت عن الله مَقَتتِ القائمين بأمر الله . فأرعدتُ مكاني ، فنظر إليّ ورحمني ، وقالَ : لن تراعَ يا غلام ! رزقك الله علم الرواية ، وألهَمك علم الدراية والرعاية»[1] .

3 ـ عبّاس المجنون

عن ابن المبارك الصّوري قال : «صعدتُ جبل لبنان فإذا برجلٍ عليه جُبّة صوف مفتّقة الأكمام ، عليها مكتوبٌ ، (لا تباع ولا تُشترى) ، قد ائتزر بمئزر الخشوع ، واتّشح برداء القنوع ، وتعمم بعمامة التوكّل . فلمّا رآني اختفى وراءَ شجرة .

---

1 انظر : طبقات الأولياء ، 178 .

فناشدتُه بالله فظهر ، فقلت : إنّكم معاشر العبّاد تصبرون على الوحدة ، وتقاسون في هذه القِفار الوحشة ، فضحك ووضع كُمّه على رأسه وأنشأ يقول :

يا حبيبَ القلوبِ مَن لي سواكا   ارحـمِ اليوم مذنباً قد أتاكا
أنتَ سؤلي ومنيتي وسروري   قد أبى القلب أن يُحبَّ سواكا
ليس سؤلي من الجِنان نعيمٌ   غير أنّي أريدها لأراكا

قال : ثمّ غاب عنّي فتعاهدت ذلك الموضع سنة لأقع عليه فلم أره . فلقيني غلام أبي سليمان الداراني فسألته عنه وأعطيته صفته فبكى وقال : واشوقاه إلى نظرةٍ أخرى منه ! فقلت : مَن هو ؟ قال : ذاك عبّاس المجنون ، يأكل في كلّ شهرٍ أكلتين من ثمار الشجر أو نباتِ الأرض ، يتعبّد منذ ستّين سنة»[1] .

هذه الأبيات عن العشق الإلهي لعبّاس المجنون نجدها ببعض التصرّف عند ريحانة المجنونة وهي العابدة المشهورة بالخوارق والكلام الفائق . قال صالح المرّي رضي الله عنه : رأيت ريحانة المجنونة وقد كتبت من وراء جيبها :

أنت أنسي ومنيتي وسروري   قد أبى القلب أن يحبّ سواكا
يا حبيبي ومنيتي واشتياقي   طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سؤلي من الجنانِ نعيماً   غير أنّي أريدها لأراكا[2]

نعتبر عبّاس المجنون من الصوفيّين التوّاقين إلى التمتّع بجمال المحبوب ، والذين لا يكتفون بالجنّة . فيقول شعران المغربي : «إن لله عباداً لو بدت لهم الجنّة بزينتها مع حَجبهم عنه لضجّوا منها»[3] . وقال أبو يزيد البسطامي : «إن لله عباداً لو حَجبهم

1 انظر : صفة الصفوة ، (486/2) .
2 انظر : الكواكب الدرّية ، رقم (98) . في ترجمته لريحانة المجنونة . لم يذكر ابن الجوزي هذه الأبيات الشعرية . راجع صفة الصفوة (272/2) .
3 انظر : الكواكب الدرّية ، (1–662/2) .

في الجنّة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنّة ، كما يستغيث أهل النار من النار»[1] .

لقد عبّر عبّاس المجنون عن هذا الشوق لرؤية الله الذي هو الحبيب .

يعتبر الإمام القشيري الشوقَ من مدارج أهل السلوك فيقول : «الشوق هو اهتياجُ القلوب إلى لقاء المحبوب ، وعلى قدر المحبّة يكون الشوق»[2] . وسُئل أحمد بن عطاء عن الشوقِ فقال : «إحتراق الأحشاء وتلهّبُ القلوب وتقطّعُ الأكباد»[3] . وسُئل أيضاً عن الشوق فقيل له : «هل الشوقُ أعلى أم المحبّة ؟» فقال : المحبّة ، لأن الشوقَ يتولّد منها . وقال أحمد بن فارس : «قلوب المشتاقين منوّرة بنور الله تعالى ، فإذا تحرّكَ اشتياقهم أضاءَ النورُ بين السماءِ والأرض ، فيعرضُهم على الملائكة فيقول : «هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدهم أنّي إليهم أشوق» .

وللغزالي قوله : «قال بعض المشايخ : رأيت في جبل اللكام رجلاً أسمرَ اللون ، ضعيف البدن ، وهو يقفز من حجر إلى حجرٍ ويقول :

الشوق والهوى   صيّراني كما ترى

ويقال : «الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه ، حتى يُحرِق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات»[4] .

4 ـ عابدٌ على ساحل بحر الشام

حدّثني عليّ بن عبدالله قال : حدّثني محمد بن الحسن ، قال : سمعتُ عليّ ابن محمد الناقد يقول : قال لي بعض شيوخنا : «كنت ببعض سواحِل الشام ، فرأيت شاباً عليه طمرانِ فأدمت النظر إليه فقال لي : شدّة الشوق والهوى

1 انظر : الرسالة القشيرية ، 220 .
2 انظر : المرجع نفسه ، 218 .
3 انظر : المرجع نفسه ، 219 .
4 انظر : إحياء علوم الدين ، (85/5) .

صيّرتني كما ترى . فقلت له : زدني ، فقال :

ما قرّ لي جنبٌ على مضجعٍ   كم يلبث الجنب على الجمرِ !
والله لا زلت له عاشقاً   وإن أمتُ أذكره في القبرِ

فمضى وتركني»[1]

الباب الثاني ـ النحول والذبول

1 – حمّاد الأقطع التيتاني

وهما أيضاً منحيان من مناحي العشق الإلهي نجدهما عند أغلبية المتصوّفين . يظهران هنا بنوع خاص في أشعار حمّاد الأقطع التيتاني أبو الخير ، أحد مشايخ الصوفية . أصله من المغرب ؛ صحب أبا عبد الله بن الجلاّء وسكن جبل لبنان . كانت السباع تأوي إليه وتأنس به . مات سنة 340 هجرية عن مئة وعشرين سنة . ومن انشاداته :

أنحَلَ الحبّ قلبه والحنينُ   ومحاهُ الهوى فما يستبينُ
ما تراه الظنونُ إلاّ ظنوناً   وهو أبقى من أن تراهُ العيونُ[2]

تحدّث عنه ابن الجوزي ، فأخبر ما يلي :

«ويقالُ له الأقطع ، لأنه كان مقطوع اليد . وكان سبب ذلك أنّه كان في جبال أنطاكية وحواليها يطلب المباح وينامُ بين الجبال ، وأنّه عاهد الله تعالى أن لا يأكل من ثمر الجبال إلاّ ما طرحته الريح . يبقى أياماً لا تطرح إليه الريح شيئاً . فرأى يوماً شجرة كُمثرى فاشتهى منها فلم يفعل . فأمالتها الريح إليه

1 انظر : حلية الأولياء ، رقم (553) .

2 انظر : طبقات الأولياء ، ابن الملقّن ، 156/155 .

فأخذ واحدة . واتفق أن لصوصاً قطعوا هنا الطريق وأخذوا يقتسمون . فوقع عليهم السلطان فأخذهم وأُخذ معهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وقطعت يده ؛ فلمّا همّوا بقطع رجله عرفه رجل فقال للأمير : «أهلكت نفسك ، هذا أبو الخير» . فبكى الأمير وسأله أن يجعله في حلٍّ ففعل وقال : «أنا أعرف ذنبي» .

ولأبي الخير ولد اسمه عيسى ، كان صالحاً أيضاً . طلب من والده الخبز ، وكان صبياً ، فقال : أيما أحبّ إليك : أُعطيك الخبز ، وتكون عند السَّبُع ؟ أو تكون عندي بلا خبز ؟ قال : فقلت في نفسي : هو والد ، ولا تطيب نفسه أن يتركني مع السَّبُع ! فقلت : أعطني الخبز ، واحبسني حيث شئت ! فأعطاني الخبز ، فلمّا أكلت ، قال لي : قم ! قلت : ترى يحملني إلى السَّبُع ؟ ! فقمت معه . فدخل الغابة وأنا خلفه ؛ وإذا بسبعين ، فلمّا أبصرا به قاما ، فقال لي : اجلس ! فجلست ، ومضى هو ، وربض السبعان ، فكنت أرجف من الخوف ، ثمّ سكنت وقلت : لو أرادا بي أذىً لكانا قد فعلا ، ثمّ خطر لي أنّه وكّلهما بحفظي ، فبقيت إلى قريب المغرب هناك ؛ فلمّا جاء قربُ العشاء جاء والدي ، فلمّا بصرا به قاما ؛ فأخذ بيدي وأخرجني ، وخرج كلّ واحد منهما إلى جانب»[1] .

2 ـ المشتاقون إلى الله

ومن المعروفين بالنحول والذبول كتعبير عن العشق الإلهي أولئك القوم الذين ذكرهم الغزالي ودعاهم «بالمشتاقين إلى الله» في جبل لبنان . فيقول على لسان الله عزّ وجلّ لداود : «فلو رأيته يا داود ، وقد ذابت نفسه ، ونحل جسمه ، وتهشّمت أعضاؤه ، وانخلع قلبه ، إذا سمع بذكرى ، أُباهي به ملائكتي»[2] .

1 انظر : طبقات الأولياء ، 156 .

2 انظر : مكاشفة القلوب ، 26 .

يعتبر القشيري النحولَ من مدارج أهل السلوك. عنه يتحدّث ابن عربي ويعتبره: «نعتاً يتعلّق بكثائف العشّاق وبلطائفهم. أمّا النوع المتعلّق بكثائفهم فهو ما يتعلّق به الحسّ من تغيّر ألوانهم وذهاب لحوم أبدانهم لاستيلاء جولان أفكارهم في أداء ما كلّفهم المحبوب أداءه ممّا افترضه عليهم. فبذلوا المجهود ليتّصفوا بالوفاء بالعهود إذا كانوا عاهدوا الله على ذلك... فهذا سبب نحول أجسادهم».

ويستطرد ابن عربي فيقول: «ومن نعوت المحبّين الذبول وهو نعتٌ صحيح في أرواحهم وأجسادهم. أمّا في أجسادهم فسببه تركُ ملاذ الأطعمة الشهيّة التي لها الدسَمُ والرطوبة، وهي مستلذّة للنفوس، وتورث في الأجسام نضرة النعيم... فترك الطعام والشراب إلاّ قدر ما تمسّ الحاجة إليه من ذلك. فقلّت الرطوبة في أجسامهم، فزالت عنهم نضرة النعيم وذبلت شفاههم واسترخت أبدانهم وراح نومهم وتقوّى سهرهم، فنالوا مقصودهم من القيام بين يديه ووجدوا المعونة على ذلك بما تركوه. فذلك هو ذبول الأجسام. وأمّا ذبول أرواحهم فيعود إلى قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالله واصبروا﴾ [الأعراف: 128] أي احبسوا نفوسكم مع الله. فلمّا فارقوا الجنس بهذه الآية ذبلت أرواحهم، وقد كانت في نضرة النعيم بمجالسة الجنس، لأنها تعلّقت بمن ليس كمثله شيء... فهذا نعت ذبولهم في أجسادهم وأرواحهم»[1].

عابد آخر

حدّثنا عليّ بنُ سياخف وكان من ظرفاء الصوفية ونساكها قال: وقال لي أبو الجعد السائح: «رأيت رجلاً حسنَ الوجه كأنه الشنّ البالي، بجبال لبنان، وعليه خرقة، وما معه شيء ولا عليه غير تلك الخرقة. فسمعته يقول:

1 الفتوحات المكّية (2/338-339).

شـــدّة الـشـــوق والـهـــوى   تـــركـــاني كـمـــا تـــرى»[1]

وفي هذا الصدد يقول ابن عربي: «ومن ألطف ما روينا في حال المحبّ عن شخصٍ من المحبّين دخل على بعض الشيوخ، فتكلّم له الشيخ عن المحبّة. فما زال ذلك الشخص يَنْحَلُ ويذوب ويسيل عرقاً حتى تحلَّل جسمه كلّه وصار على الحصير بين يدي الشيخ بركة ماءٍ ذاب كلّه. فدخل عليه صاحبه فلم يرَ عند الشيخ أحداً، فقال له: أين فلان؟ فقال الشيخ: هوذا وأشار إلى الماء ووصف حاله». فهذا تحليلٌ غريبٌ واستحالةٌ عجيبة حيث لم يزل ينحف عن كثافته حتى عادَ ماءً. فكانَ أوّلاً حيّاً بماءٍ، فعادَ الآن يُحيي كلَّ شيء لأنَّ اللهَ قال: ﴿وجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]. فالمحبّ على هذا من يحيا به كلّ شيء»[2].

الباب الثالث ـ الجود والسخاء

وهما من مناحي الحبّ ومن مدارج أرباب السلوك المذكورين في «الرسالة القشيرية»[3]. عن عائشة رَضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «السخيّ قريبٌ من الله تعالى، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنّة، بعيدٌ عن النار. والبخيل بعيد من الله تعالى، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنّة، قريبٌ من النار... والجاهِلُ السخيّ أحبُّ إلى الله تعالى من العابد البخيل»[4].

وقيل: بكى أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهانني»[5].

1 انظر: مصارع العشّاق للسرّاج (89/2). وهذا مذكور عند الغزالي في «إحياء علوم الدين» (85/5).
2 انظر: الفتوحات المكّية (346/2).
3-4 انظر: الرسالة القشيرية، 160.
5 انظر: المرجع نفسه، 164.

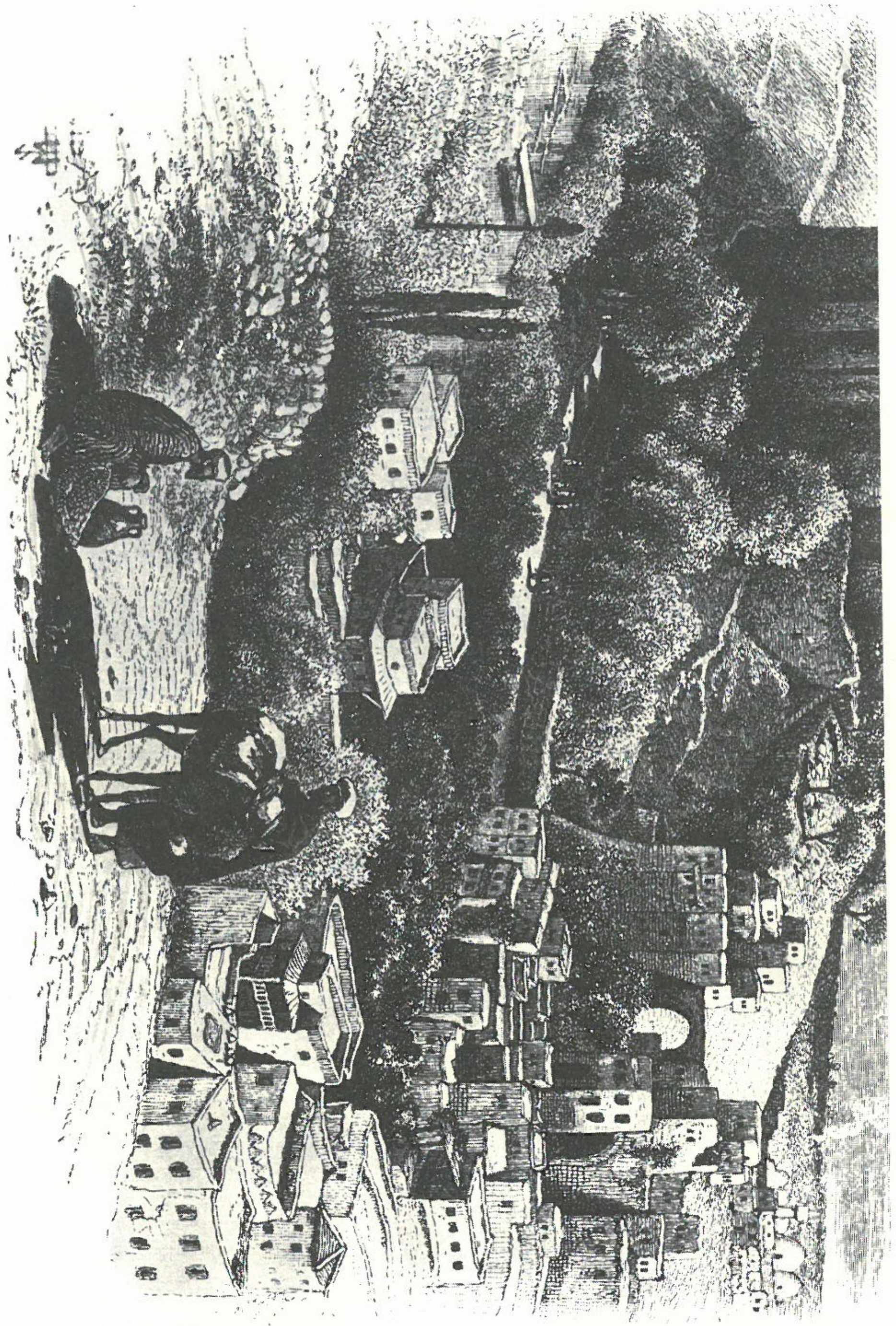

طرابلس

1 ـ إبراهيم بن أدهم

ومن الصوفيّين المشهورين بالجود والسخاء إبراهيم بن أدهم . وكان له مُتَعَبَّد في جبل لبنان .

جرت معه حادثة في طرابلس ـ لبنان ، وكان معه إبراهيم بن بشّار الذي حدَّث فقال : «مضيت مع إبراهيم بن أدهم إلى مدينةٍ يقال لها طرابلس ومعنا رغيفان ما لنا شيء غيرهما . وإذا سائلٌ يسأل . فقال لي : إدفع إليه ما معك . فتثبَّتُ . فقال لي : ما لك ، أعطه . فأعطيته وأنا متعجّبٌ من فعله . فقال لي : يا أبا إسحاق ، إنّك تَلقى غداً ما لم تلقه قطّ ، واعلم أنّك تلقى ما أسلفت ولا تلقى ما خلّفت ؛ فمهّد لنفسك فإنّك لا تدري متى يفاجئوك أمرُ ربّك . قال : فأبكاني كلامه وهوّن عليّ الدنيا . فلمّا نظر إليّ أبكي قال : «هكذا تكن»[1] .

شقيق ابن إبراهيم قال : بينا نحن ذات يوم عند إبراهيم بن أدهم إذ مرَّ به رجل فقال إبراهيم : أليس هذا فلان ؟ فقيل : نعم . فقال لرجل : أدركه فقل له : قال لك إبراهيم : لِمَ لم تُسلّم ؟ فقال له ، فقال : والله إن امرأتي وضعت وليس عندي شيء ، فخرجت شبه المجنون ، قال : فرجعت إلى إبراهيم فقلت له : فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ، كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به هذا الأمر ؟ وقال : يا فلان : أيتِ صاحب البستان فاستسلف منه دينارين ، فادخل السوق فاشترِ له ما يصلحه بدينار ، وادفع الدينار الآخر إليه .

فدخلتُ السوق فأوقرتُ بدينار من كلّ شيء ، وتوجّهتُ إليه فدققتُ الباب فقالت امرأته : مَن هذا ؟ قلت : أنا ، أردتُ فلاناً . قالت : ليس هو ههنا . قلت : فمري بفتح الباب وتنحّي . قال : ففتحتِ البابَ فأدخلتُ ما

1 انظر : القصّاص والمذكّرين ، 69 ؛ صفوة الصفوة (343/2) .

على البعير وألقيته في صحن الدار وناولتها الدينار . فقالت : على يد مَن بُعِث هذا؟ فقلت : قولي على يد أخيك إبراهيم بن أدهم . فقالت : اللهمّ ، لا تنسَ هذا اليوم لإبراهيم»[1] .

وعلي بن بكار قال : «كنّا جلوساً بالمصيصة وعندنا إبراهيم بن أدهم ، فقدم رجل من خراسان فقال : أيّكم إبراهيم بن أدهم؟ فقال القوم : هذا . قال : إنّ إخوتك بعثوني إليك . فلمّا سمع ذكر إخوته قام فأخذ بيديه فنحاه فقال : ما جاءَ بك؟ قال : أنا مملوكك ، معي فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم بعث بها إليك إخوتك . فقال : إن كنت صادقاً فأنت حرٌّ وما معك لك ، إذهب فلا تخبر أحداً . فذهبَ»[2] .

وعنه حدّثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : سمعت مضاء بن عيسى يقول : «ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا بصلاة ، ولكن بالصدقِ والسخاء»[3] .

سرّ هذا السخاء عند إبراهيم بن أدهم يعود إلى اكتفائه بالله عزّ وجلّ . ومن كلامه بهذا الصدد : رأيت ربّ العزّة في المنام فأوقفني بين يديه وقال لي : يا إبراهيم أما استحيتَ منّي ، تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك مثل لقائي ، وهل يسكن قلب المشتاق إلى غير حبيبه ! أم هل يستريح المحبّ إلى غير مَن اشتاقَ إليه ! قال : فقلت : يا ربّ ، تهتُ في حبّك ، فلم أدرِ ما أقول»[4] .

1 انظر : صفة الصفوة ، (343/2) .
2 انظر : صفة الصفوة ، (344/2) .
3 انظر : حلية الأولياء ، (449/4) .
4 انظر : طبقات الأولياء ، 40 .

2 ـ عابدٌ آخر

عن أبي الحارث الأولاسي قال : «بلغني أنّ بجبل لبنان رجلاً تطوى له الأرض من يومه إلى بيتِ المقدس ، ووصف لي مكانه ، فصرت اليه . فإذا هو رجل قد ألبس سُلامة . فسألته من أين المطعم؟ فدعا بظبيةٍ كانت قريبة منه في الجبل . فجاء بها إلى صخرة فيها نقرةٌ فحلبها وسقاني من اللبن»[1] .

وفي مسلك الجود والسخاء يقول القشيري : «سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقّاق رضي الله عنه يقول : قال اسماء بنُ خارجة : ما أُحِبُّ أن أردَّ أحداً عن حاجةٍ طلبها . لأنّه إن كان كريماً أصون عرضه ، وإن كان لئيماً أصونُ عنه عرضي»[2] .

الباب الرابع ـ الحزن والأنس

ومن مناحي الحبّ عند بعض متصوّفي جبل لبنان ، الحزن والأنس . قال أبو سعيد الخدري : «الحزن حالٌ يقبض القلب من التفرّق في أودية الغفلة ، والحزن من أوصافِ أهل السلوك» . وجاء في الخبر : «إن الله تعالى يحبّ كلّ قلب حزين» . وقال بشر بن الحارث : «الحزن مَلِكٌ ، فإذا سكن في موضع ، لم يرضَ أن يساكنه أحدٌ» . وسمعت رابعةُ العدوية رجلاً يقول : «واحزناه !» . فقالت : «قل : وا قلّة حزناه ! لو كنتَ محزوناً في أُمّةٍ لرحم الله تلك الأمّة ببكائه»[2] .

وعن الحزن والأنس أيضاً : حدّثني أحمد بن الغمر الحمصي قال : سمعت محمد بن المبارك الصّوري قال : «قلت لراهب : متى يبلغ الرجل حقيقة الأنس

1 انظر : القصّاص والمذكّرين ، 69 .
2 انظر : الرسالة القشيريّة ، 160 .
3 انظر : الرسالة القشيرية ، 83 .

بالله؟ قال: إذا صفا الودّ فيه، وخلصت المعاملة فيما بين العبد وبين الله. قال: قلت: فمتى يصفو الودّ وتخلص المعاملة؟ قال: إذا اجتمع الهمُّ فصار في الطاعة. قلت: ومتى يجتمع الهمّ فيصير في الطاعة؟ قال: إذا اجتمعتِ الهموم فصارت همّاً واحداً»[1].

ومنهم سباع الموصلي، له الحظّ النفيس في التمتّع برياض التأنيس. حدّثنا محمد بن أحمد بن محمد العبدي، حدّثني أبي، حدّثني أبو بكر القرشي، حدّثني عون بن إبراهيم، حدّثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: «سمعتُ المضاءَ يقول لسباعِ الموصلي: يا أبا أحمد، إلى أيّ شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأنس بالله»[2].

وسئل ذو النون عن الأنس فقال: هو انبساطُ الحبّ للمحبوب.

أنشدونا لرويم بن أحمد وهو أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري توفي سنة 942م. بغداديّ من أعظم المشايخ. كان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود الظاهري وهو من أعلام التصوّف[3]:

شغلتَ قلبي بما لديك فما ينفكّ طول الحياة من فكري
آنستني منك بالوداد وقد أوحشتني من جميع ذا البشرِ
ذكرك لي مؤنس يعارضني يوعدُني عنك منك بالظفرِ
وحيث ما كنتَ يا مدى همّي فأنت منّي بموضع النظرِ[4]

ويقول إبراهيم بن أدهم عن الحزن. حدّثنا أبو بكر محمّد بن أحمد

1 انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (137/10).
2 انظر: حلية الأولياء، (141/10، 232، 233).
3 انظر: التعرّف لمذهب أهل التصوّف، 259.
4 انظر: المرجع نفسه، 75-76.

المؤذن، حدّثنا أحمد بن أبان، حدّثنا أبو بكر بن سفيان، حدّثنا محمّد بن الحسين، حدّثنا مسكين بن عبيد الصوفي (حليف الأحزان، الناقل لكلام الأئمة والإخوان) قال: حدّثني المتوكّل بن الحسين العابد قال: قال إبراهيم بن أدهم: **الحزن حزنان**: حزنٌ لك، وحزنٌ عليك. فالحزن الذي هو لك حزنك على الآخرة؛ والحزن الذي هو عليك فحزنك على الدنيا وزينتها»[1].

1 ـ عابدٌ محزون في جبل لبنان

قال إبراهيم بن الجُنيد: حدّثني أبو فروة السائح قال: بينما أنا أسيحُ في جبل لبنان إذ جَنَّ الليل عليَّ وأنا في بعض أوديته. فإذا بصوتٍ محزونٍ يقول: «يا من آنستني بقربه وأوحشتني من خلقه وكان عنده مسرّتي، إرحمِ اليوم عَبْرتي (والعبران هو الحزين الباكي). فدنوت منه. فلمّا أحسّ بي نفر وقال: إنسيٌّ أنتَ؟ قلت: أنسيٌّ. فقال: إليك عنّي فمنكم فررت»[2].

2 ـ عابدٌ آخر في جبل لبنان

يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول: بينما أنا أسير على جبل لبنان في جوف الليل، وإذا أنا بعريشٍ من ورق البلّوط، وإذا شابٌ قد أخرج رأسه من العريش بوجه أحسن من القمر. فقال: شهد لك قلبي في النوازلِ بمعرفة درجة الفضل لك. وكيف لا يشهد لك قلبي بذلك ولا يَحْسُنُ بقلبي أن يأنفَ غيرك؟! هيهاتَ لقد خاب لديك المقصّرون عنك! ثمّ أدخل رأسه في عريشه وفاتني كلامه، فلم أزل واقفاً إلى أن طلع الفجر. ثمّ أخرجَ رأسه فنظر

1 انظر: حلية الأولياء، (166/10).
2 انظر: صفة الصفوة (2/483-484).

إلى القمر فقال: إلهي أشرقتْ بنورك السموات، وأنارت بنورك الظلمات، وحجبت جلالك عن العيون فوصلتَ به معارف القلوب. ثمّ قال: «بالتجائي إليك في حزني انظر إليّ نظرة مَن ناديته. فأجاب. فوثبت إليه، فسلّمتُ عليه فردَّ عليّ السلام. فقلت: رحمك الله، اسألك عن مسألة؟ قال: لا. قلت: وَلِمَ ذاك؟ قال: ما خرج روعك من قلبي. قلت: حبيبي وما الذي أفزعك منّي؟ قال: بطالتك في يوم شُغلِك، وتركك الزاد ليوم معادك، ووقوفك على الظنون يا ذا النون. فوقعت مغشياً عليّ. فما أفقت إلاّ بحرّ الشمس. ثمّ رفعت رأسي فلم أرَه ولا العريش. فقمت وسرت وفيّ منه حسرة»[1].

يقول الغزالي: «إن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبّة، إلاّ أن هذه الآثار مختلفة، تختلف على المحبّ بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته. فإذا غلب عليه التطلّع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره عن الاطّلاع إلى كنه الجلال، انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له، وهاجَ إليه. وتسمّى هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمرٍ غائب».

«وإذا غلب عليه الفرحُ بالقربِ، ومشاهدة الحضور بما هو حاصلٌ من الكشف، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفتٍ إلى ما لم يدركه بعدُ، أُستبشر القلب بما يلاحظه، فيسمّى استبشاره أنساً».

«وإذا كان نظره إلى صفاتِ العزّ والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد، تألّم القلب بهذا الاستشعار، فيسمّى تألّمه خوفاً».

«ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلاّ في الانفراد والخلوة كما

1 انظر: صفة الصفوة، (484/2).

حكي عن أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل، فقيل له: من أينَ أقبلتَ؟ فقال: من الأنس بالله. وذلك لأنّ الأنس بالله يلازمه التوحّش من غير الله. بل كلّ ما يعوق عن الخلوة، فيكون من أثقل الأشياء على القلب...».

«ولذلك قال بعض الحكماء، في دعائه: «يا من آنسني بذكره، وأوحشني من خلقه. وقال الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام: كن لي مشتاقاً، وبي مستأنساً ومن سوايَ مستوحشاً. وقيل لرابعة: بِمَ نلتِ هذه المنزلة؟ قالت: بتركي ما لا يعنيني، وأنسي بمن لم يَزُلْ»[1].

الباب الخامس ـ الزهد

1 ـ عجوز عمياء

عن عبد الملك بن هاشم قال: سمعتُ ذا النون يقول: «كنت سائراً في بعض جبال الشام، فإذا أنا بكوخ، فقصدتُه، فإذا أنا بعجوز قد عميت من البكاء، فدنوتُ منها فسلّمت وقلت: يا عجوز حدّثيني ما الغنى؟ قالت: الزهد في الدنيا. قلت: فما الزهد في الدنيا؟ قالت: تركُ طلبِ المفقود حتى يُفقدَ الموجود»[2].

«ومنهم مسكين بن عبيد الصوفي. صَحِبَ أصحابَ إبراهيم بن أدهم، فسلك مسلكه في التوحّد والزهد.

حدّثنا أبي، حدّثنا أبو الحسن العبدي، حدّثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدّثني محمّد بن الحسين البرجلاني، حدّثني مسكين بن عبيد الصوفي قال: حدّثني

1 انظر: إحياء علوم الدين، (58/5).

2 انظر: صفة الصفوة، (495/2).

المتوكّل بن الحسين العابد، قال: قال إبراهيم بن أدهم: «**الزهد ثلاثة أصناف**: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فالزهد الفرض: الزهد في الحرام، والزهدُ الفضل: الزهد في الحلال، والزهد السلامة: الزهد في الشبهات»[1].

«حدّثنا أبو تراب عسكر بن الحصين، قال: «جاءَ رجل إلى حاتم الأصمّ فقال: يا أبا عبد الرحمن، أيّ شيء رأس الزهد ووسط الزهد وآخر الزهد؟ فقال: رأس الزهد الثقة بالله، ووسطه الصبر، وآخره الإخلاص»[2].

وفي «الرسالة القشيرية» أقوالٌ في الزهد لدى المتصوّفين يفسّر كلام العجوز العمياء؛ قيل: فالزهد لا يفرح بموجود في الدنيا، ولا يتأسّف على مفقود منها. وقال أبو عثمان: الزهد أن تترك الدنيا، ثمّ لا تُبالي بمن أخذها. وقال ابن الجلاّء: الزهد: هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر في عينيه، فيسهل عليك الاعراضُ عنها. وهناك أقوال أخرى عن الزهد ذات أهمية للنصر الآباذي وللجنيد، ولعبد الله بن المبارك، وليحيى بن معاذ، ولحاتم الأصمّ وسواهم[3].

2 ـ شيخٌ زاهدٌ بساحل دمشق

ولأبي سليمان الداراني حكايةٌ طريفة وغريبةٌ معاً لشيخٍ زاهد بساحل دمشق يقال له علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي يسرد خمسة خصال في الزهد من أقوال النبي ﷺ يختم بها حكايته:

قال: حدّثني أبي عن جدّي سويد بن الحارث قال: وفدتُ على رسول الله ﷺ سابع سبعة من قومي. فلمّا دخلنا عليه وكلّمنا، أعجبه ما رأى من سِمتنا

1 انظر: حلية الأولياء، (142/10).
2 انظر: حلية الأولياء، (233/10).
3 انظر: الرسالة القشيرية، (67–70).

وزيّنا. فقال: ما أنتم؟ قلنا: مؤمنون. فتبسّم وقال: إن لكلّ قولٍ حقيقةً، فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قال سويد: قلنا خمس عشرة خَصلَةً: خمس منها أمَرَتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس منها أمَرتنا رُسُلك أن نعمل بها، وخمس منها تَخلّقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكرهَ منها شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: وما الخمس التي أمَرَتكم رسلي أن تؤمنوا بها؟ قلنا: أمَرَتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمَرَتنا رسلك أن نقول: لا إله إلاّ الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ويحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً. قال: وما الخمس التي تخلّقتم بها أنتم في الجاهلية؟ قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء والصدق في مواطن اللقاء، والرضا بمُرّ القضاء، والصبر عند شماتةِ الأعداء. فقال النبي ﷺ: وأنا أزيدكم خمساً فتتمّ لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه تزولون، واتّقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون. قال أبو سليمان: وقال لي علقمة بن يزيد: فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها.

الباب السادس ـ التصوّف والمسيرة إلى الله

ومن ميزاته الفقر والصبر ومعاداة الهوى وترك الشهوات. وهو مسلك من مسالكِ الصوفي وتعبير عن عشقه لله. سُئل ذو النون المصري عن الصوفيّين فقال: هم قومٌ آثروا الله عزّ وجلّ على كلّ شيء، فآثرهم الله عزّ وجلّ. وقيل: «التصوّف كفٌّ فارغٌ وقلبٌ طيّب». ويقول أبو حمزة البغدادي: «علامة الصوفي الصادق أن

يفتقر بعد الغنى ويُذَلَّ بعد العزّ، ويُخفى بعد الشهرة؛ وعلامة الصوفي الكاذب أن يستغني بعد الفقر، ويَعزّ بعد الذلّ ويشتهر بعد الخفاء»[1].

وسُئل سمنون عن التصوّف، فقال: أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء. وقال الجنيد: التصوّف عنوةٌ لا صلح فيها. وقال أيضاً: هم أهلُ بيتٍ واحد لا يدخل فيهم غيرهم. وقال أيضاً: التصوّف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع أتباع. وقال أيضاً: الصوفي كالأرضِ، يطرح عليها كلّ قبيح، ولا يخرج منها إلاّ كلّ مليح. وقال أيضاً: إنّه كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسحابِ يظلّ كلّ شيء، وكالقطر يسقي كلّ شيء. وقال: إذا رأيت الصوفيّ يُعنى بظاهره، فاعلم أن باطنه خراب. وقال أبو يعقوب المزابلي: التصوّف حالٌ تضمحلّ فيها معالم الإنسانية. ويقال: الصوفيّ لا يتغيّر، فإن تغيّر لا يتكدّر.

فهو بالنتيجة ذاك الذي إذا ما عانقَ الفقر، وعاش الصبر، وعادى الهوى وعاف الشهوات يطيب له المسير إلى الله. أمثال هؤلاء نجدهم في جبل لبنان أو على ساحل بحر الشام.

1 ـ علي الجرجرائي

هذا الصوفي لقيه بُشر الحافي الذي كان ينزل جبل لبنان، على عين ماءٍ بجبل لبنان. قال: فلمّا أبصرني قال: بذنبٍ منّي لقيتُ اليوم إنسيّاً؟ فعدوت خلفه وقلت: أوصني. فالتفت إليّ وقال: أمستعصٍ أنت؟ عانقِ الفقر وعاشِرِ الصبر وعادِ الهوى وعافِ الشهوات، واجعل بيتك أحلى من لحدك يوم تنقلُ إليه؛ على هذا طابَ المسير إلى الله عزّ وجلّ.

1 انظر: الرسالة القشيرية، (183–184).

2 ـ عابدٌ من أهل بيروت

وعن أبو عبد الرحمن الأزدي قال: كنت أدورُ على حائط ببيروت فمررت برجل متدلّي الرجلين في البحر وهو يكبّر. فاتّكأت على الشرفة التي إلى جنبه فقلت: يا شاب، ما لكَ جالساً وحدك؟ قال: إتّقِ الله ولا تقل لي إلاّ حقّاً، ما كنت قطّ وحدي منذ ولدتني أمّي، إنّ معي ربّي حيث ما كنت، ومعي ملَكانِ يحفظانِ عليّ، وشيطان ما يفارقني. فإذا عرضت لي حاجة إلى ربّي عزّ وجلّ سألته إيّاها، و لم أسأله بلساني فجاءَني بها.

3 ـ امرأة ببعض سواحل الشام

وقال ذو النون: رأيتُ امرأة ببعض سواحل الشام، فقلت لها: من أين أقبلتِ، رحمكِ الله؟ قالت: من عند أقوام ﴿تتجافى جنوبُهم عن المضاجعِ يدعونَ ربَّهم خوفاً وطمعاً﴾ [سورة السجدة: 16]. قلت: وأين تريدين؟ قالت: إلى رجالٍ ﴿لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ الله﴾ [سورة النور: 37]. قلت: صفيهم لي؟ فأنشدت تقول:

قومٌ هُمومُهُم بالله قد عَلِقت ... فما لَهم هِمَمٌ تسمو إلى أحدِ
فمطلب القوم مولاهم وسيّدهم ... يا حسن مطلبهم للواحدِ الصَمَدِ
ما إن تنازَعُهم دنيا ولا شرفٌ ... من المطاعم واللذات والولدِ
ولا للبسِ ثيابٍ فائقٍ أَنِقِ ... ولا لروح سرورٍ حلّ في بَلَدِ
إلاّ مسارعةٌ في إثر منزلَةٍ ... قد قاربَ الخطو فيها باعدِ الأبدِ
فهم رهائنُ غدرانٍ وأوديةٍ ... وفي الشوامخِ تلقاهم مع العَدَدِ[1]

1 انظر: التعرّف لمذهب أهل التصوّف، 17.

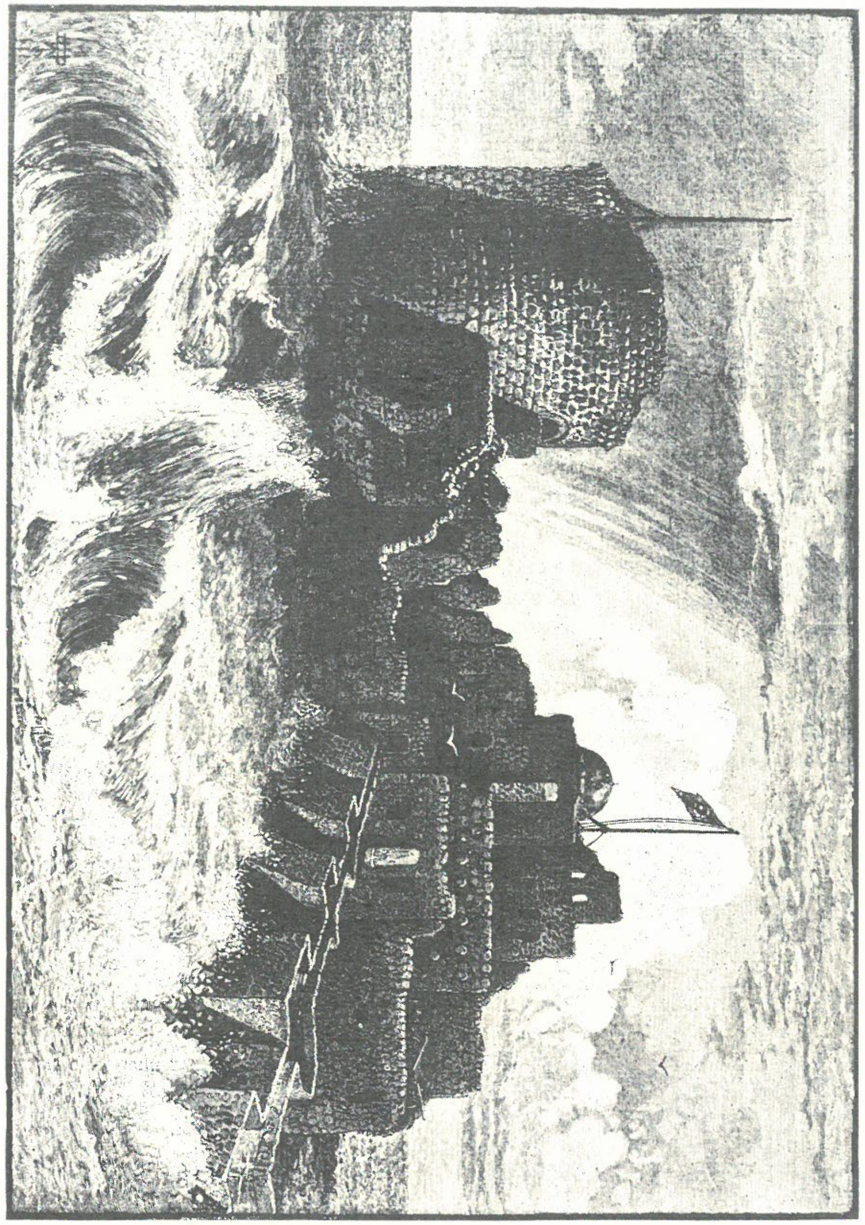

صيدا

4 ـ عابدٌ آخر على ساحل بحر الشام (صيدا) . في صيدا طريق للسماء .

وعن أحمد بن فارس قال : حدّثني أبو بكر الكتّاني قال : كنتُ أنا وأبو سعيد الخرّاز وعبّاس بن المهتدي وآخر نسير بالشام على ساحل البحر ، إذا شابٌ يمشي ، معه محبرة ظننا أنّه من أصحاب الحديث . فقال له أبو سعيد : «يا فتى ، على أيّ طريق تسير ؟ فقال : لستُ أعرف إلاّ طريقين طريق الخاصة وطريق العامة . فأمّا طريق العامّة ، الذي أنتم عليه ، وأمّا طريق الخاصة فباسم الله . وتقدَّم إلى البحر ومشى حيالنا على الماء . فلم نزل نراه ، حتى غاب عن أبصارنا»[1] .

5 ـ إبراهيم بن أدهم ومحاورته مع أعرابي

حُكي عن إبراهيم بن أدهم أنّه كان يسير إلى بيت الله راجلاً ، فإذا أعرابيٌ على ناقةٍ فقال : يا شيخ إلى أين؟ فقال إبراهيم : إلى بيتِ الله : كيف وأنت راجلٌ لا راحلة لك ؟! فقال : إنّ لي مراكب كثيرة . فقال : ما هي؟ قال : إذا نزلت عليّ بليةٌ ركبتُ مركب الصبر ، وإذا نزلت عليّ نعمة ركبت مركب الشكر ، وإذا نزل بي القضاء ، ركبت مركب الرضا ، وإذا دعتني النفس إلى شيء علمت أن ما بقي من العمر أقلّ ممّا مضى . فقال الأعرابي : «أنت الراكبُ وأنا الراجل»[2] .

1 انظر : صفة الصفوة ، (483/2) .

2 انظر : حكاية الصوفية ، (78-79) .

الباب السابع ـ الغيرة والخوف

قال النصر آباذي : «الحقّ تعالى غيورٌ ، ومن غيرته أنّه لم يجعل له طريقاً سواه ؛ وقيل : أوحى الله تعالى لبعض أنبيائه : أن لفلاناً إليّ حاجةً ولي أيضاً إليه حاجة ، فإن قضى حاجتي قضيت حاجته . فقال ذلك النبي عليه السلام في مناجاته : إلهي ، كيف يكون لك حاجة؟ فقال : إنه ساكنٌ بقلبه غيري ، فليفرغ قلبه عنه أقضِ حاجته»[1] .

فالغيرة : هي من مدارج أهل السلوك ، وهي الشعور لكون الحقّ غيوراً ، لا يريد أن يشاركه أحدٌ في قلب محبّه . من هؤلاء القوم ثلاثة عبّاد في جبل لبنان .

1 ـ عابدٌ شاب

وعن محمّد بن حسّان قال : «بينا أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج عليّ شابٌ قد أحرقته السموم والرياح ، عليه طمرٌ رثّ ، وقد سقط شعر رأسه على حاجبيه . فلمّا نظر إليّ ولّى هارباً مستوحشاً . فقلت له : يا أخي ، موعظةٌ لعلّ الله عزّ وجلّ أن ينفعني بها . فالتفت إليّ وهو مارٌ فقال : يا أخي ، إحذرِ الحقّ فإنّه غيور ، ولا يحبّ أن يرى في قلب عبده سواه»[2] .

2 ـ عابدٌ آخر

وعن الشاب في جبل لبنان الذي أخبرنا عنه ذو النون قوله مُخاطباً الله : شهد لك قلبي في النوازل بمعرفة درجة الفضل لك ، وكيف لا يشهد لك قلبي

1 انظر : الرسالة القشيرية ، 167 .
2 انظر : صفة الصفوة ، (483/2) .

بذلك ولا يحسن بقلبي أن يألفَ غيرك !»[1] .

3 ـ رجل عابدٌ

ويُروى عن سري السَقْطي أنّه قال : كنتُ أطلبُ رجلاً صديقاً لي مدّة من الأوقات ، فمررتُ ببعض الجبال ، فإذا أنا بجماعة زمنى وعميان ومرضى ، فسألت عن حالهم ، فقالوا : ههنا رجل يخرج في السنة مرّة يدعو لهم ، فيجدون الشفاء ، فصبرت حتى خرج ، ودعا لهم ، فوجدوا الشفاء . فقفوتُ أثره وتعلّقتُ به وقلت له : بي علّة باطنة ، فما دواؤها؟ فقال : يا سَري ، خلِّ عنّي ، فإنّه غيورٌ لا يراك تساكِنُ غيره فتسقط من عينه[2] .

وللغيرة علاقةٌ بالورع الذي هو من مدارج أهل السلوك . «سمعت يحيى ابن معاذ يقول : الورع على وجهين : ورع في الظاهر وهو أن لا يتحرّك إلاّ بالله تعالى ، وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواه تعالى»[3] .

ولها أيضاً علاقة بالزهد وهو من مدارج أهل السلوك وتعبير عن العشق لله .

قال بشر الحافي : «الزهد مَلِكٌ لا يسكن إلاّ في قلبٍ خالٍ»[4] .

الباب الثامن ـ الفقر

والفقر : هو منحىً من مناحي الحبّ في مسالكِ أهل التصوّف . وقد أدرج ابن عربي الفقراء بين أولياء الله[5] .

1 انظر : صفة الصفوة ، (484/2) .
2 انظر : الرسالة القشيرية ، 167 .
3 انظر : المرجع نفسه ، 63 .
4 انظر : المرجع نفسه ، 69 .
5 انظر : الفتوحات المكّية ، (16/2) .

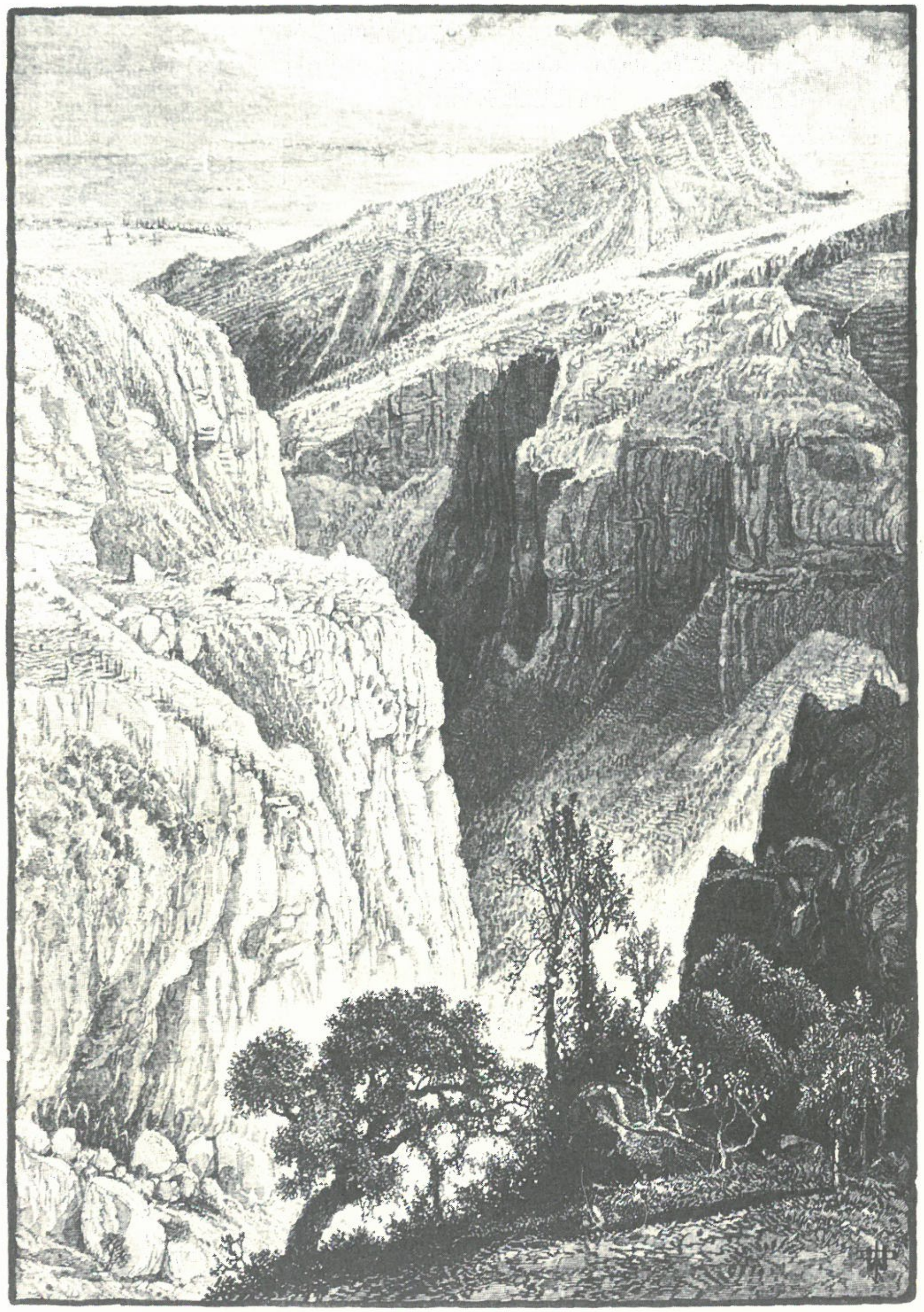

الوادي المقدس

1 ـ فقير مجهول

وكان في جبل لبنان جماعةٌ منهم يذكرها ابن بطوطة فيقول: وسافرتُ إلى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا... ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى، والزهّاد والصالحين. وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعةً من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممّن لم يُشتهر اسمه. أخبرني بعض الصالحين الذي لقيتهم به قال: كنّا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيّام البرد الشديد فأوقدنا ناراً عظيمة وأحدقنا بها. فقال بعض الحاضرين: يصلح لهذه النار ما يُشوى فيها. فقال أحد الفقراء ممّا تزدريه الأعين ولا يُعبأ به: «إنّي كنت عند صلاة العصر بمتَعَبّد إبراهيم بن أدهم، فرأيت بمقربة منه حمار وحشٍ قد أحدق الثلج به من كلّ جانبٍ وأظنّه لا يقدر على الحراك. فلو ذهبتم إليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه في هذه النار. قال: فقمنا إليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف لنا، فقبضناه وأتينا به أصحابنا وذبحناه وشوينا لحمه في تلك النار. وطلبنا الفقير الذي نبّه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر. فطال عجبنا منه[1].

2 ـ إبراهيم بن أدهم

لقد عرف إبراهيم بن أدهم هو أيضاً بهذا المنحى: قيل إن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها، وقال: تريدُ أن تمحوَ اسمي من ديوانِ الفقراء بعشرة آلاف درهم، لا أفعل[2].

ومن كلامه: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى، وطلب الناسُ الغنى فاستقبلهم الفقر[3].

1 انظر: رحلة ابن بطوطة، 72–73.
2 انظر: الرسالة القشيرية، 177.
3 انظر: المرجع نفسه، 179.

يوضّح لنا ابن عربي هويّة هذه الطبقة من الصوفيّين عندما يقول : «ومنهم رضي الله عنهم الفقراء، ولا عدد يحصرهم أيضاً بل يكثرون ويقلّون . . . فالفقراء هم الذين يفتقرون إلى الله . . . فإن الحقيقة تأبى أن يفتقر إلى غير الله . فالفقير : مَن يفتقر إلى كلّ شيء وإلى نفسه ولا يفتقر إليه شيء . فهذه أسنى الحالات»[1] .

ولابن مسعود قوله بهذا الصدد : الفقر شعارُ الأولياء وحلية الأصفياء واختيار الحقّ سبحانه لخواصه من الأتقياء والأنبياء، والفقراء صفوة الله عزّ وجلّ من عباده، ومواضعُ أسراره بين خلقه . بهم يصون الخلق ، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق . والفقراء الصُبَّر جلساء الله تعالى يوم القيامة[2] .

3 ـ موت فقير

وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال : السلام عليكم ، فردّوا عليه السلام . فقال : هل ههنا موضعٌ نظيفٌ يمكن الإنسان أن يموت فيه ، قال : فأشاروا إليه بمكانٍ وعين ماء . فجدّد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله عزّ وجلّ ، ومضى إلى المكان الذي أشاروا إليه ، ومدّ رجليه ومات[3] .

ومن صفات الفقراء ومسلكهم ما يقوله بعض الخبراء بهذا المنحى .

«سمعتُ أبا بكر يقول : سمعت محمّداً يقول : سمعت إبراهيم الخواص يقول : من صفة الفقير أن تكون أوقاته مستويةً في الانبساط لفقره ، صائناً له ، محتاطاً لا تظهر عليه فاقة ولا تبدو منه حاجة . أقلّ أخلاقه الصبر والقناعة ، راحته

1 انظر : الفتوحات المكّية ، (16/2) .

2 انظر : الرسالة القشيرية ، 177 .

3 انظر : المرجع نفسه ، 201 .

في القلّة وتعذيبه في الكثرة . مستوحشٌ من الرفاهات ، متنعّم بالخشونات ، فهو بضِدِّ ما فيه الخليقة يرى ما هو عليه معتمده وإليه مستراحه . ليس له وقت معلوم ولا سببٌ معروف . فلا تراه إلاّ مسروراً بفقره ، فرحاً بضرّه ، مؤنته على نفسه ثقيلة وعلى غيره خفيفة ، يعزّ الفقر ويعظّمه ، ويخفيه بجهده ويكتمه حتى عن أشكاله يستره . قد عظمت عليه من الله تعالى عليه في المنة ، وجلّ قدرها في قلبه من نعمة ، فليس يريد بما اختار له بدلاً ولا يبغي عنه حولاً .

فمن نعوتهم اثنتا عشرة خصلة :

أوّلها : أنّهم كانوا بوعد الله مطمئنّين . **والثانية** : من الخلق آيسين . **والثالثة** : عداوتهم للشياطين . **والرابعة** : كانوا من حيث الحقّ في الأشياء خارجين . **والخامسة** : كانوا على الخلق مشفقين . **والسادسة** : كانوا لأذى الناس محتملين . **والسابعة** : كانوا لمواضع العداوة لا يدعون النصيحة لجميع المسلمين . **والثامنة** : كانوا في مواطن الحقّ متواضعين . **والتاسعة** : كانوا بمعرفة الله مشتغلين . **والعاشرة** : كانوا [على مدى] الدهر على طهارة . **والحادية عشرة** : كان الفقر رأس مالهم . **والثانية عشرة** : كانوا في الرضا فيما قلّ أو كثر وأحبّوا أو كرهوا عن الله واحداً . فهذه جملة من صفاتهم ، يقصر وصف الواصفين عن أسبابهم»[1] .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : إن أردتَ أن تعرف رضايَ عنك فانظر كيف رضى الفقراء عنك[2] .

1 انظر : حلية الأولياء ، (347/10) ، رقم (603) .

2 انظر : الرسالة القشيرية ، 181 .

الباب التاسع ـ المراقبة

1 ـ اثنان في صور

وهي منحى من مناحي العشق الإلهي، اتّصف بها صوفيانِ من مدينة صور تحدّث عنهما الغزالي. يقول في مقدّمة الخبر عنهما: «مراقبة المراقبين من الصدّيقين وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة. فلا يبقى فيه متّسع للالتفاتِ إلى الغير أصلاً... ومن نالَ هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق، حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتحٌ عينيه، ولا يسمع ما يُقال له مع أنه لا صَمَمَ به. وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلّمه، حتى كان بعضهم يجري عليهم ذلك، فقال لمن عاتبه: إذا مررتَ بي، فحرّكني.

قال أبو عبد الله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروزباري. فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد: «إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرتَ إليهما نظرةً لعلّك تستفيد منهما. فدخلت صور وأنا جائع عطشان، وفي وسطي خرقة، وليس على كتفي شيء. فدخلتُ المسجد، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة. فسلّمت عليهما فما أجاباني. فسلّمت ثانيةً وثالثةً، فلم أسمع الجواب. فقلت: نشدتكما بالله إلاّ رددتما عليَّ السلام. فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إليّ وقال: يا ابن خفيف! الدنيا قليل وما بقي من القليل إلاّ القليل، فخذ من

القليل الكثير . يا ابن خفيف ! ما أقلّ شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكلّيتي ثمّ طأطأ رأسه في المكان . فبقيت عندهما حتى صلّينا الظهر والعصر ، فذهب جوعي وعطشي وعنائي . فلمّا كان وقت العصر قلت : عظني . فرفع رأسه إليَّ وقال : يا ابن خفيف ! نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسانُ العِظَة . فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا . فلمّا كان اليوم الثالث قلت في سرّي : أحلّفهما أن يعظاني لعلّي أن أنتفع بعظتهما . فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف ! عليك بصحبة مَن يذكّرك الله رؤيتُه ؛ وتقع هيبته على قلبك ، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام ، قم عنّا . قال الغزالي : فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبقَ فيهم متّسعٌ لغير ذلك»[1] .

وللجمهور من المتصوّفين أقوالٌ في المراقبة أمثال أحمد الجريري ، والجنيد وذي النون ، وإبراهيم النصر آباذي ، وجعفر بن نصر ، وأبو عثمان المغربي ، ومحمّد الواسطي ، مذكورة في «الرسالة القشيرية»[2] .

ولكن ما هي خلال هذه الطبقة من المتصوّفين الذين يتحلّون بهبة «المراقبة» ؟

أخبرنا جعفر بن محمد بن نصير ـ في كتابه ـ وحدّثني عنه عثمان بن محمد العثماني ، قال : سمعت الجنيد يقول : سمعت أبا عبد الله الحارث بن أسد يقول : وسئل عن المراقبة لله ، وعن المُراقب لربّه ، فقال :

إن المراقبة تكون على ثلاث خلال على قدر عقل العاقلين ومعرفتهم بربّهم ،

1 انظر : إحياء علوم الدين ، (5/131) .
2 انظر : الرسالة القشيرية ، (119-122) .

يفترقون بذلك . **فإحدى الثلاث** : الخوف من الله ، **والخلّة الثانية** : الحياء من الله ، **والخلّة الثالثة** : الحبّ لله .

فأمّا الخائف فمراقبٌ بشدّة حذر من الله تعالى ، وغلبة فزع . وأمّا المستحيي من الله فمراقب بشدّة انكسار وغلبة إخبات ، مع اشفاق لا يفارقه ، ولا تكاد أن تخلو قلوب المراقبين من ذكر اطلاع الرقيب بشدّة حذر من قلوبهم أن يراهم غافلين عن مراقبته .

الباب العاشر ـ المشتاقون إلى الله

وفي جبل لبنان طبقة من المتصوّفين يدعوهم الله سبحانه وتعالى «المشتاقين إليه» . يحدّثنا عنهم أبو حامد الغزالي فيقول :

«ومن أخبار داود عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه : يا داود إلى كم تذكر الجنّة ، ولا تسألني الشوقَ إليّ؟ قال : يا ربِّ ، مَن المشتاقون إليك؟ قال : إن المشتاقين إليّ الذين صفّيتهم من كلّ كدر ، ونبّهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم خرقاً ينظرون إليّ ، وإنّي لأحمل قلوبهم بيدي ، فأضعها على سمائي ، ثمّ أدعو نجباءَ ملائكتي ، فإذا اجتمعوا سجدوا لي ، فأقول : إنّي لم أدعوكم لتسجدوا لي ، ولكنّي دعوتكم لأعرض عليكم المشتاقين إليّ ، وأُباهي بكم أهل الشوقِ إليّ ، فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي ، كما تضيء الشمس لأهل الأرض . يا داود إنّي خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعّمتها بنور وجهي ، فاتّخذتهم لنفسي محدّثيَّ ، وجعلت أبدانهم موضع نظري على الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليّ ، ويزدادون في كلّ يوم شوقاً .

قال داود : يا ربِّ أرني أهلَ محبّتك ! فقال : يا داود إئتِ جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفساً ، فيهم شبّان ، وفيهم شيوخ ، وفيهم كهول . فإذا أتيتهم فأقرئهم منّي السلامَ وقل لهم : إن ربّكم يقرئكم السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة ؟ فإنّكم أحبّائي وأصفيائي وأوليائي ؛ أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم .

فأتاهم داود عليه السلام ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكّرون في عظمة الله عزّ وجلّ . فلمّا نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرّقوا عنه ، فقال داود : إنّي رسول الله إليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربّكم . فأقبلوا نحوه ، وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض .

فقال داود : إنّي رسول الله إليكم ، يقرئكم السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنّكم أحبّائي وأصفيائي وأوليائي . أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبّتكم ، وأنظر إليكم في كلّ ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة .

قال : فجرت الدموع على خدودهم . فقال شيخهم :

سبحانك ! سبحانك ! نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء ، وقد علمتَ أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا ! فأدِم علينا لزوم الطريقِ إليك ، وأتمم لنا بذلك المنّة علينا .

وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك ، فأعنّا عليه بجودك .

وقال الآخر : من نطفةٍ خلقتنا ، ومَنَنْتَ علينا بالتفكّر في عظمتك ، أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك ، متفكرٌ في جلالك ، وطَلِبَتُنا الدنوّ من نورك .

وقال الآخر : كلّتْ ألسنتنا من دعائك لِعِظَم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة مِنّتك على أهل محبّتك .

وقال آخر : أنتَ هديتَ قلوبنا لذكرك ، وفرّغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك .

وقال الآخر : قد عرفتَ حاجتنا إنّما هي النظر إلى وجهك .

وقال الآخر : كيف يجترىء العبد على سيّده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك . فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات من أطباقِ السموات .

وقال الآخر : ندعوك أن تُقبل علينا ، وتديمه عندنا .

وقال الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك ، فأمنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك .

وقال الآخر : أَسألك من بينهم أن تعمي عينيّ عن النظر إلى الدنيا وأهلها ، وقلبي عن الاشتغال بغير الآخرة .

وقال الآخر : قد عرفت ـ تباركتَ وتعاليتَ ـ إنّك أنت تحبّ أولياءك . فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كلّ شيء دونك .

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم : قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ما أحببتم ، فليفارق كلّ واحد منكم صاحبه ، وليتّخذ لنفسه سرداباً ، فإنّي كاشفٌ الحجابَ فيما بيني وبينكم حتى تنظروا نوري وجلالي .

فقال داود : يا ربّ ، بما نالوا هذه منك ؟ قال : بحسن الظنّ ، والكفّ عن الدنيا وأهلها ، والخلواتِ بي ، ومناجاتهم لي ؛ وإنّ هذا مُنزَلٌ لا يناله إلاّ من رفض الدنيا وأهلها ، و لم يشتغل بشيء من ذكرها ، وفرّغ قلبه لي ، واختارني على جميع خلقي ؛ فعند ذلك أعطف عليه ، وأفرّغ نفسه ، وأكشف الحجاب فيما

بيني وبينه، حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كلّ ساعة، وأقرّبه من نور وجهي. إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفوقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكري.

فإذا فعلت ذلك به يا داود عميتُ نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحبّبها إليه؛ لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي، لا يرى غيري، ولا أرى غيره. فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه، ونحل جسمه، وتهشّمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع بذكري، أباهي به ملائكتي، وأهل سماواتي؛ يزداد خوفاً وعبادة. وعزّتي وجلالي يا داود، لأقعدنّه في الفردوس، ولأشفينّ صدره من النظر إليّ حتى يرضى، وفوق الرضى»[1].

خلاصة

هذا ما تمكنّا حتى الآن من العثور عليه من أخبار المتصوّفين المسلمين الذين عاشوا في جبل لبنان وعلى ساحل بحر الشام، في فترة من التاريخ تتراوح بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر مسيحية. فتحرّينا مناحيهم في العشق الإلهي من خلال أشعارهم وأقوالهم، وأساليب تعبّدهم ومحبّتهم لله سبحانه.

إن حالات العشق الإلهي هذه التي أخذوا بها، انعكست حتماً على مظهرهم وكسوتهم وتصرّفاتهم وعلاقاتهم مع الناس وقوتهم وأحاديثهم. فمنهم من عاشوا وحدهم في عزلة تامة ولسنين طويلة، منقطعين للصلاة وللتأمّل بجمال الله، ومنهم من عاشوا جماعات أمثال جماعة الفقراء والعبّاد

1 انظر: مكاشفة القلوب المُقرّبُ من علاّمِ الغيوب، (241-243).

حول مُتَعَبِّدٍ شيخ حكيم.

إن وجود متصوّفين مسلمين ومسيحيين في جبل لبنان في هذه الفترة التاريخية التي ذكرناها، لحدث تاريخي رائع وفريد. فالقاسم المشترك بين هؤلاء المتصوّفين كان التفتيش عن الله والزهد بكلّ خيرات الأرض في سبيل اللقاء معه. كما لو أنّ هذا النوع من الكائنات هم أناسٌ على حدة، منتخبون، ومفتونون بشيء يتخطّاهم وينظّم حياتهم. أرى أن مبرّر دعوتهم هو اللقاء ليس مع العالم الواقعي، الوهميّ، إنّما هو مع الحقيقة، مع الله. هذا اللقاء كان يولّد صدمةً، يولّد ارتداداً. فاكتشاف الله، ككلّ ارتداد، هو قطع علاقة بين الإنسان والعالم.

أمّا لماذا كانوا يقصدون جبل لبنان المعروف بالجبل المقدس كي يعيشوا فيه؟ هو أن المتصوّف العاشق بحاجة إلى أمثاله من العشّاق المتصوّفين الذين يشاركونه شغفه وعشقه، ولا يمكنه أن يعيش إلاّ في الأمكنة التي يعيشون هم فيها وأيضاً لما فيه من القوت المباح.

القسم الثاني

سيرة أولياء وأعلام السيّاح المذكورين في جبل لبنان

1 ـ إبراهيم بن أدهم يكنّى أبا إسحاق
2 ـ ذو النون المصري
3 ـ أبو عبد الله الجلاّء
4 ـ حماد بن عبد الله الأقطع التيناتي ، أبو الخير
5 ـ علي الجرجرائي
6 ـ أبو سعيد الخرّاز
7 ـ أبو سليمان الداراني
8 ـ محمد بن المبارك الصّوري
9 ـ أبو الحارث الأولاسي
10 ـ أبو بكر الورّاق

1 ـ إبراهيم بن أدهم يكنّى أبا إسحاق

وعن يونس بن سليمان البلخي قال : «كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف وكان أبوه كثير المال والخدم . فخرج إبراهيم يوماً في الصيد مع الغلمان والخدم والجنائب والبزاة . فبينما إبراهيم في ذلك وهو على فرسه يُركضه ، إذا هو بصوتٍ من فوقه : يا إبراهيم ما هذا العبث ؟ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا تُرجعون﴾ ؟ [سورة المؤمنون ، 115] اتقِ الله وعليكَ بالزاد ليوم الفاقة . قال : فنزل عن دابّته ورفض الدنيا وأخذَ في عمل الآخرة» .

وعن بشير بن المنذر قال : «كنت إذا رأيت إبراهيم بن أدهم كأنه ليس فيه روح لو نَفَحَتْه الريحُ لوَقَعَ ؛ قد أسودَّ ، متدرّع بعَباء»[1] .

يقول ابن الملقن : «بأنه صحب بمكة سفيان الثوري والفضيل بن عياض . وتوفّي بالجزيرة في الغزو . وحمل إلى صور ـ مدينة بساحل الشام ، أو ببلاد الروم على ساحل البحر ـ فدفن بها سنة إحدى وستّين ومائة»[2] .

ولصور قصة مع إبراهيم بن أدهم : «كان إبراهيم بن أدهم رأى في المنام كأنّ الجنّة فتحت له فإذا فيها مدينتان ، إحداهما من ياقوتة بيضاء ، والأخرى من ياقوتة حمراء ، فقيل له : اسكن هاتين المدينتين فإنهما في الدنيا ، فقال : ما اسمهما ؟ قيل : اطلبهما فإنّك تراهما كما أريتهما في الجنّة ، فركب يطلبهما فرأى رباطات خراسان ، فقال : يا فرج (مولى إبراهيم) ما أراهما . ثمّ جاء

1 انظر : صفة الصفوة ، (342/2) ؛ وله قصة في الرسالة القشيرية ، 260 ؛ وفي القصّاص والمذكّرين ، 69 ؛ كما أن له قصة مطوّلة في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/426–452) امّا كتاب «طبقات الأولياء» لابن الملقن ، فيورد ترجمته في عدد وافر من المؤلّفات ، 38 .

2 انظر : طبقات الأولياء ، 39 ؛ وحكايا الصوفية ، 136 .

إلى قزوين ثمّ ذهب إلى المصيصة والثغور ، حتى أتى الساحل في ناحية صور . فلمّا صار بالنواقير ـ وهي نواقير نقرها سليمان بن داود عليه السلام على جبل على البحر ـ فلمّا صعد عليها رأى صور . فقال : يا فرج ، هذه إحدى المدينتين ، فجاء حتى نزلها ، فكان يغزو مع أحمد بن معيوق فإذا رجع نزل يمنة المسجد ؛ فغزا غزوة فمات في الجزيرة ، وحُمل إلى صور فدفن في موقع يقال له مدفلة . فأهل صور يذكرونه في تشبيب أشعارهم ولا يرثون ميتاً إلاّ بدأوا أولاً بإبراهيم بن أدهم . قال القاسم بن عبد السلام : «قد رأيت قبره بصور»[1] .

حدّثنا إبراهيم بن عبد الله عن بشر بن المنذر ـ قاضي المصيصة ـ قال : «كنت أرى إبراهيم بن أدهم كأنه أعرابي لا يشبع من الخبز والماء يابساً ، إنّما هو جلد على عظم . لا تراه مجالساً أحداً ، ولا تحدّثه حتى يأتي منزله . فإذا أتى منزله وجلس إليه اخوانه ضاحكهم وباسطهم»[2] .

كانت مناقبه جمّة أفردها ابن الحلبي بالتأليف . غير أنّني سأكتفي ببعض مناقب تبرز شخصيته كصوفيّ زاهد :

«كان الحصاد أحبَّ إلى إبراهيم من اللِقاط . وكان يلبس في الشتاء فرواً ليس تحته قميص ، ولم يكن يلبس خفّين ولا عمامة ؛ وفي الصيف شقتين بأربعة دراهم يتّزر بواحدة ويرتدي بأخرى ، ويصوم في السفر والحضر ، ولا ينام الليل ، وكان يتفكّر . فإذا فرغ من الحصاد أرسل بعض أصحابه فحاسب

1 انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للأصفهاني الشافعي ، (9/8) .

2 انظر : المرجع نفسه ، 11 . كان الأوزاعي يقول : «إبراهيم أحبّ إليّ من سليمان الخواصّ لأنه يخالط الناس وينبسط إليهم» (10/8) .

صاحب الزرع ويجيء بالدراهم لا يمسّها بيده فيقول لأصحابه : «إذهبوا كلوا بها شهواتكم . فإن لم يكن حصاد أجر نفسه في حفظ البساتين والمزارع . وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مدى قمح»[1] .

«أخبرني أبو يحيى رفيق إبراهيم بن أدهم قال : «سألت إبراهيم بن أدهم ونزلنا منزلاً فسألته عن سقف البيت ما هو بحجارة أم خشب؟ فقال : ما أدري . وسألته عن الجارية التي كانت تخدمنا سوداء هي أم بيضاء؟ قال : لا أدري»[2] .

«كان إذا أصابته مجاعة ، يأكل الطين أو يستفّ الرمل أياماً عديدة» . وعن أبي إسحاق الغزاري قال : «أخبرني إبراهيم بن أدهم أنّه أصابته مجاعة فمكث أياماً يبلّ الرمل بالماء فيأكله»[3] . «وكان يأخذ الرطب من شجر البلّوط»[4] .

حدّثنا أصحابنا أن إبراهيم بن أدهم كان إذا دُعي إلى طعام وهو صائم أكل ولم يقل إنّي صائم .

حدّثنا يعلى بن عبيد ، قال : دخل إبراهيم بن أدهم على أبي جعفر أمير المؤمنين ، فقال : كيف شأنكم يا أبا إسحاق؟ قال يا أمير المؤمنين :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وحدّثنا أبو عمير عن حمزة ، قال : دخل إبراهيم بن أدهم على بعض الولاة ، فقال له : مِمَّ معيشتك؟ قال :

1 انظر : المرجع نفسه ، (431/7) .

2 انظر : المرجع نفسه ، (449/7) .

3 انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، (439/7) .

4 انظر : المرجع نفسه ، (1/8) .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع[1]

كان غالباً ما يستشهد بأقوال النبي ﷺ .

وقد توصّل إلى درجة من القوّة الروحية حتى أنّه كان يأمر السباع ؛ وله قصص عديدة معها[2] . ويخبرون بأنه كان في البحر يهدّىء العاصفة .

ومن أجمل ما يلفت انتباهي من مناقبه هو الوداد للجميع والنظر إلى الآخرين بالتساوي : «اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم» . وسئل : بم يتمّ الورع؟ قال : «بتسوية كلّ الخلق من قلبك واشتغالك عن عيوبهم بذنبك . وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لربّ جليل ، فكِّر في ذنبك وتب إلى ربّك يثبت الورع في قلبك ، واحسم الطمع إلاّ من ربّك»[3] .

وطالما أعجبتني هذه القصة عنه واستفدت منها جداً ، قيل : صحب رجل إبراهيم بن أدهم ، فلمّا أراد أن يفارقه قال له الرجل : إن رأيت فيّ عيباً فنبّهني عليه . فقال إبراهيم : إنّي لم أرَ بك عيباً لأنّي لاحظتك بعين الوداد فاستحسنت منك ما رأيت ، فسل غيري عن عيبك . وفي معناه أنشدوا :

وعين الرضى من كلّ عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا[4]

2 ـ ذو النون المصري

«ومنهم العَلم المُعني ، والحِكم المرضي ، الناطق بالحقائق ، الفائق للطرائق ،

1 رقع الرجل رقعاً أي أصلح . انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 10/8 .

2 انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 4/8 و5 .

3 انظر : المرجع نفسه ، 61 .

4 انظر : حكاية الصوفية ، 362 .

له العبارات الوثيقة والإشارات الدقيقة. نظر فعبر، وذكر فازدجر، أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري، رحمه الله تعالى»[1].

«أبو الفيض أحد رجال الحقيقة. قيل اسمه ثوبان، وقيل: الفيض، وقيل ذو النون لقبه، واشتهر بذلك. وقد ذكره ابن عساكر وغيره».

وكان أحد العلماء في وقته، نحيفاً، تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية. وكان أبوه نوبيّاً، فيما قيل.

سُئل عن سبب توبته، فقال: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فنمت في الطريق، في بعض الصحاري. ففتحت عينيّ، فإذا أنا بقنبرة عمياء، سقطت من وكرها على الأرض، فانشقّت الأرض، فخرجت منها سكرجتان: واحدة ذهب، والأخرى فضّة، في إحداهما سمسم، وفي الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا، وتشرب من هذا. فقلت: حسبي! قد تبت! ولزمت الباب إلى أن قُبلت. ثمّ يذكر سبباً آخر لسياحته.

مات يوم الاثنين سنة خمس - وقيل: ستّ - وأربعين ومائتين ودفن بالقرافة الصغرى، وعلى قبره مشهد مبنى، عليه جلالة، ومعه قبور جماعة من الأولياء.

وقيل له: هل للعبد إلى اصلاح نفسه من سبيل؟ فقال:

قد بقينا مذبذبين حيارى   نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدواعي الهوى تخفّ علينا   وخلاف الهوى علينا ثقيل

ولمّا مرض مرضه الذي مات فيه، قيل له: ما تشتهي؟! قال: «أن أعرفه قبل موتي بلحظة!».

1 انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (345/9).

وقيل له عند النزع: أوصنا! فقال: لا تشغلوني! فإنّي متعجبٌ من سرّ لطفه!

قال فتح بن شخرف: دخلت عليه عند موته، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال:

أموتُ وما ماتت إليك صبابتي
ولا قضيتُ من صدق حبّك أوطاري
مناي المنى كلّ المنى أنت لي منى
وأنت الغنى كلّ الغنى عند إفقاري
وأنت مدى سؤلي وغاية رغبتي
وموضع آمالي ومكنونُ إضماري
تحمل قلبي فيك ما لا أبثّ
هوإن طال سقمي فيك أو طال إضراري
وبين ضلوعي منك ما كلّ قد بدا
ولم يبدِ باديه لأهل ولا جار
وبي منك في الأحشاء داء مخامر
وقد هدَّ منّي الركن وأنبت أسراري
ألست دليل الركب إن هم تحيّروا
ومنقذ من أشفى على جرف هار
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن
من النور في أيديهم عشر معشار

وعلّمتهم علماً فباتوا بنوره
وبان لهم منه معالم أسرار
مهامه للغيب حتى كأنها
لمّا غاب عنها منه حاضرة الدار
وأبصارهم محجوبة وقلوبهم
تراك بأوهام حديدات أبصار[1]

ومن أصحابه أحمد الخراز وأحمد الجلاء[1].

في كتاب «حكاية الصوفية» أن ذي النون توفّي سنة 245هـ بالجيزة. وحملت جنازته في قارب خوفاً من سقوط الجسر أن لا يحتمل الناس المزدحمين على نعشه. ذكره الشعراني «في الطبقات»[3].

قال ذو النون المصري قُدِّسَ سرُّه: ركبنا مرّة في مركب وركب معنا شابٌّ صبيح وجهه مشرق، فلمّا توسّطنا فقد صاحب المركب كيساً فيه مال، ففتّش كلّ من في المركب، فلمّا وصلوا إلى الشاب ليفتّشوه وثب وثبة من المركب حتى جلس على أمواج البحر وقام له الموج على مثال السرير ونحن ننظر إليه في المركب، وقال: يا مولاي إنّ هؤلاء اتّهموني وإنّي أقسم عليك يا حبيب قلبي أن تأمر كلّ دابّة في هذا المكان أن تخرج رأسها وفي أفواهها جواهر. قال ذو النون: فما تمّ كلامه حتى رأينا دواب البحر أمام المركب قد أخرجت رؤوسها وفي فم كلّ واحدة منها جوهرة تتلألأ. ثمّ وثب الشاب في الموج

1 انظر: طبقات الأولياء، 175-177.
2 انظر: المرجع نفسه، عدد 10 و19.
3 انظر: حكاية الصوفية، 35.

إلى البحر وجعل يتبختر على وجه الماء ويقول: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ [الفاتحة: 4] حتى غاب عن بصري فحملني هذا على السيّاحة، وذكرت قوله عليه السلام: «لا يزال في أمّتي ثلاثون قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلّما مات منهم واحد أبدل الله مكانه واحداً»[1].

3ـ أبو عبد الله بن الجلاّء

واسمه أحمد بن يحيى. من أهل بغداد، لكنه انتقل فسكن الشام.

قال أبو عمر الدمشقي: سمعت ابن الجلاّء يقول: قلت لأبي وأمّي أحبّ أن تهباني لله. فقالا: قد وهبناك لله. فغبت عنهما مدّة ثمّ رجعت من غيبتي، ـ وكانت ليلة مطيرة ـ فدققت عليهما الباب، فقالا: مَن؟ قلت: ولدكما. قالا: كان لنا ولد فوهبناه لله، ونحن من العرب لا نرجع فيما وهبناه. وما فتحا لي الباب.

وعنه قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاّء يقول: من بلغ بنفسه إلى رتبةٍ سقط عنها، ومن بُلغ به ثبت عليها.

وكان إذا سُئل عن المحبّة قال: ما لي وللمحبّة؟ أنا أريد أن أتعلّم التوبة.

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال أبو عبد الله بن الجلاّء: من عَلت همّته عن الأكوان وصل إلى مكوّنها، ومن وقف بهمّته على شيءٍ سوى الحقّ فاته الحقّ، لأنّه أعزّ من أن يرضى معه بشريك.

قال المصنف لا نعلم أن ابن الجلاّء أسند شيئاً وقد صحب أبا تراب النخشبي وذا النون وغيرهما.

1 انظر: حكاية الصوفية، 141-142.

وتوفّي يوم السبت لاثنتي عشرة خلت من رجب سنة ستّ وثلاثِ مائة[1] .

4 ـ حماد بن عبد الله ، الأقطع التيناتي ، أبو الخير

أحد مشايخ الصوفية ، صحب كثيراً من جلّة مشايخ الصوفية .

أصله من المغرب ، وسكن التينات ، قرية على أميال من المصيصة . وكان من العبّاد المشهورين ، والزهّاد المذكورين .

صحب أبا عبدالله بن الجلاّء ، وسكن جبل لبنان ، من نواحي دمشق . وكان ينسج الخوص بيديه ، لا يدري كيف ينسجه . وحكاية قطع يده طويلة مشهورة[2] . وكانت السباع تأوي إليه ، وتأنس به . ولم تزل ثغور الشام محفوظة أيام حياته ، إلى أن مضى لسبيله .

مات سنة نيف وأربعين وثلاثمائة[3] ، عن مائة وعشرين سنة .

ومن كلامه : القلوب ظروف : فقلب مملوء إيماناً ، فعلامته الشفقة على جميع المسلمين والاهتمام بهم ، ومعاونتهم على ما يعود صلاحه إليهم ، وقلب مملوء نفاقاً ، فعلامته الحقد والغلّ ، والغشّ والحسد[4] .

وقال : من أحبّ أن يطلع الناس على عمله فهو مرائي ، ومن أحبّ أن يطلع الناس على حاله فهو مدّع كذّاب[5] .

---

1 انظر : صفة الصفوة ، (1/600-601) .

2 ذكرها أبو نعيم في الحلية (10/406) . وابن الجوزي في المنتظم (14/96) ، وذلك لأنه عاهد الله تعالى على عهد فنكث ، فأخذ لصوص من الصحراء وأخذ معهم فقطعت يده) .

3 ذكر ابن الجوزي في المنتظم (14/16) وما بعدها أنه توفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة .

4 ذكره أبو نعيم في الحلية (10/406) ، باختلاف يسير في اللفظ .

5 ذكره أبو نعيم في الحلية (10/406) .

وقال : دخلت مدينة رسول الله ﷺ وأنا بفاقة ، فأقمت خمسة أيام ما ذقت ذواقاً ، فتقدّمت إلى القبر ، فسلمت على رسول الله ﷺ ، وعلى خليفته ؛ وقلت : أنا ضيفك الليلة ، يا رسول الله ! . وتنحّيت ونمت خلف المنبر . فرأيت رسول الله في المنام ، والصدّيق عن يمينه ، والفاروق عن شماله ، ، وعلي بين يديه ، فحرّكني علي ، وقال لي : قم ! قد جاء رسول الله ! . فقمت إليه ، وقبّلت بين عينيه ؛ فدفع إليّ رغيفاً ، فأكلت نصفه ، فانتبهت فإذا في يدي نصفه .

وقيل له : أيّ شيء أعجب ما رأيت ! . قال : رأيتُ عبداً أسود ، في جامع طرسوس ، أدخل رأسه في مرقعته ، وخطر في قلبه الحرم ، فأخرج رأسه وهو في الحرم .

وقال أبو الحسين القرافي : زرت أبا الخير ، فلمّا ودّعته خرج معي من باب المسجد ، وقال : أنا أعلم أنّك لا تحمل معك معلوماً ، ولكن احمل معك هاتين التفاحتين . فأخذتهما فوضعتهما في جيبي وسرت ، فلم يفتح لي بشيء ثلاثة أيام ، فأخرجت واحدة منها فأكلتها ؛ ثمّ أردت أن أخرج الثانية فإذا هما في جيبي ، فكنت آكل منهما ويعودان ، إلى أن وصلت باب الموصل ، فقلت في نفسي : إنّهما يفسدان على توكّلي إذ صارتا معلوماً لي ! . فأخرجتهما من جيبي بمرة ؛ فإذا فقير ملفوف بعباءة يقول : أشتهي تفاحة ! . فناولتهما إليه . فلمّا عبرت وقع لي أن الشيخ بعثهما إليه ، وكنت في رفقة في الطريق فانصرفت ، فلمّا كان الغد رجعت إليه فلم أجده .

وقال أبو الحسن القرافي : كنت ماضياً لأبي الخير أزوره ، فلقيت إنساناً بغدادياً ، فقال لي : إلى أين ؟ ، قلت : أزور الشيخ ! ، قال : إنّا ندخل إليه ، فيقدّم لنا الخبز واللبن ، وأنا صفراوي ! . فدخلنا عليه ، وقدّم لي خبزاً ولبناً ، ولرفيقي

رماناً حلواً وحامضاً ، وقال : كل هذا ! .

ثمّ قال لي : من أين صحبت هذا ، فإنّه بدعي ؟ ! . وما كنت سمعت منه شيئاً ، فلمّا أن كان بعد عشر سنين رأيته بتنيس ـ وهو تاجر ـ وإذا به معتزلي محض .

وروى : عن إبراهيم الرقي قال : قصدته مسلماً ، فصلّى المغرب ، ولم يقرأ الفاتحة مستوياً ، فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي ! . فلمّا سلّمت خرجت للطهارة ، فقصدني السبع ، فعدت إليه ، وقلت : إنّ الأسد قصدني ! فخرج وصاح على الأسد ، وقال : ألم أقل لك : لا تتعرّض لأضيافي ؟ ! فتنحّى وتطهّرت . فلمّا رجعت قال : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد ! .

وروى : أنه كان أسود ، وفي لسانه عجمة الحبش ، وقصده بعض البغداديّين ـ من أهل اللسان ـ ليمتحنه ، ومعه تلامذة له ، وأعلمهم أنه لا يحسن شيئاً ، فدخل عليه ، وحوله أصحابه ، فسلّم عليه وقال : أيّها الشيخ ! مسألة ؟ . فقال : ليس هذا موضع مسألتك ، ولكن اجلس حتى يخلو الموضع . فلمّا خلا أخذ بيد البغدادي ، وأدخله إلى مسجد يأوي إليه للخلوة ، في وسط الأجمة ، فأجلسه في المسجد ، وقام هو يركع ، فإذا هو بصياح الأسد من كلّ جانب ، فارتعد البغدادي واصفرّ لونه ، فسلّم أبو الخير وقال : هات مسألتك ! فغشي عليه ، فحمله أبو الخير على ظهره ، وردّه إلى أصحابه ، وقال : خذوا شيخكم ! ، فلمّا أفاق هرب من عنده خفية .

ومن إنشاداته :

أنحل الحبّ قلبه والحنين   ومحه الهوى فما يستبين

ما تراه الظنون إلاّ ظنوناً   وهو أخفى من أن تراه العيون[1]

5 ـ علي الجرجرائي

ومنهم المتخلّي من الشهوات ، والمتحلّي بالخلوات ، تخلّى عن الجزع والهلع واستحلى الفزع والضرع . علي الجرجرائي . من قدماء المتعبّدين .

حدّثنا إبراهيم من محمد بن يحيى النيسابوري ـ ببغداد ـ قال : سمعتُ أبا حامد أحمد بن محمد بن حمدان النيسابوري ، يقول : سمعتُ إسماعيل بن عبد الله الشامي يقول : سمعتُ سرياً السقطي يقول : خرجت من بغداد أريد الرباط إلى عبادان لأصوم بها رجباً وشعبان ورمضان ، فلقيت في طريقي علياً الجرجرائي وكان من الزهّاد الكبار فدنا وقت إفطاري ، وكان معي ملح مدقوق وأقراص ، فقلت : هلمّ رحمك الله ! فقال : ملحك مدقوق ومعك من ألوان الطعام . لن تفلح ولن تدخل بستان المحبّين . فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير فيسفّ منها . فقلت : ما دعاك إلى هذا ؟ قال : إنّي حسبتُ ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة . فلمّا دخلنا عبادان قلت : موعظة أحفظها عنك . قال : نعم إن شاء الله ، احفظ عنّي خمس خصال ، إنّك إن حفظتها لا تبالي ما أضعت بعدها ، قلت : نعم . قال : عانق الفقر ، وتوسّد الصبر ، وعادِ الشهوات ، وخالف الهوى ، وافزع إلى الله في جميع أمورك . قلت : فإذا كنت كذلك ؟ قال : يهب الله لك خمساً : الزهد ، ومع الزهد القنوع ومع القنوع الرضا ، ومع الرضا المعرفة ، ومع المعرفة الشوق . ثمّ يهب لك خمساً : السباق ، والبدار ، والتخفف ، وحسن البشارة ،

---

1 انظر : طبقات الأولياء ، 153–156 .

وحسن المنقلب إلى الله. أولئك أحبّاء الله. قلت: فأين ترى لي أن أسكن؟ قال: ارحل نحو لكام. قلت: فهل شيء أعيش به؟ قال: فمقت في وجهي وقال: تفرّ إلى الله من ذنبك، وتستبطئه في رزقك؟ فلا والله ما أدري دخل البحر أم لا.

وحكي جعفر بن نصير عن السري بزيادة ألفاظ.

أخبرني جعفر بن محمد ـ في كتابه حاكياً، عن السري السقطي، قال: خرجت من بغداد أريد الرباط إلى عبادان فصحبني علي الجرجرائي في الزورق، فلمّا حضر وقت إفطاري أخرجت قرصين من شعير وملح مدقوق؟ وقلت لعلي: هلم يا أبا الحسن. قال: فجعل يطيل النظر إلى الرغيفين والملح، ثمّ إنه التفت إليّ فقال: يا سري ملحك مدقوق، قلت: نعم. قال: يا سري ليس تفلح. قلت: و لم؟ قال: يا سري أما علمت أن خبز الشعير والملح الجريش ينوّر القلب! فجعل يتردّد في صدري، فلمّا قربنا من عبادان وأردنا أن نفترق، قلت: رحمك الله كلمة أحفظها عنك. قال: أو تفعل؟ قلت: نعم أفعل. فقال لي: يا سري احفظ عنّي خمس خصال، إن أنت حفظتها لا تبالي ما ضيّعت بعدهن. قلت: وما هن يرحمك الله؟ قال: يا سري، عانق الفقر، وتوسّد الصبر، وعادِ الشهوات، وخالف الهوى، واضرع إلى الله في جميع أمورك، [قلت:] فإذا كنت كذلك [؟ قال:] وهب الله لك خمساً. قلت: وما هن؟ قال: الشكر، والرضا، والخوف، والرجاء، والصبر على البلاء. ثمّ تدفعك هذه إلى خمس: إلى الورع الخفي، وتصفية القلوب، وترك ما حاك في الصدور وترك ما لا يعنيك، وترك الفضول لحفظ الجوارح، ثمّ تمدّك بخمس: بحياة القلوب، وصفاء الاعتبار، والفهم عن الله، والتيقّظ من الغفلة، ومساعدة

الأوطان في طاعة الله. فعندها يرديك الله بخمسة أردية: اللطف، والحلم، والرأفة، والرحمة للعالم، وهيبة النار إذا اطلعت عليها ذكرت الله بالربوبية. ويلزم قلبك خمساً: السباق، والبدار، والتصبر عن الحرام، وصدق الانقطاع، وصحّة الإرادة[1].

6 ـ أبو سعيد الخرّاز واسمه أحمد بن عيسى

قال الجنيد: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخرّاز لهلكنا. قال علي: فقلت لإبراهيم: وأيّ شيء كان حاله؟ قال: أقام كذا وكذا سنةً يخرز، ما فاته الحقّ بين الخرزتين.

وقال أبو جعفر الصيدلاني: سمعت أبا سعيد الخرّاز يقول: من ظنّ أنه ببذل الجهد يصل فمتَمنّ، ومن ظنّ أنه بغير بذل الجهد يصل فمتَعنّ.

وأبو الفضل العباس ابن الشاعر، يذكر عن تلميذةٍ لأبي سعيد قالت: كنت أسأله مسألةً والإزار بيني وبينه مشدود. فاستفزّني حلاوة كلامه فنظرت في ثقب من الإزار فرأيت شفته. فلمّا وقعت عيني عليه سكت وقال: جرى ها هنا حدث، فأخبريني ما هو؟ فعرّفته أنّي نظرت إليه، فقال: أما علمتِ أن نظرك إليّ معصية وهذا العلم لا يحتمل التخليط!.

وعن أبي القاسم بن مروان قال: كان عندنا بنهاوند فتىً يصحبني وكنت أصحب أبا سعيد الخرّاز: فكنت إذا رجعت حدّثت ذلك الفتى ما أسمع من أبي سعيد. فقال لي ذات يوم: إنْ سهّل الله لك الخروج خرجتُ معك حتى أرى هذا الشيخ.

1 انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (10/113-115).

فخرجت وخرج معي ووصلنا إلى مكة فقال لي : ليس نطوف حتى نلقى أبا سعيد . فقصدناه وسلّمنا عليه فقال الشاب : مسألة ـ و لم يحدّثني أنه يريد أن يسأل عن شيء ـ فقال له الشيخ : سل . فقال : ما حقيقة التوكّل ؟ فقال له الشيخ : أن لا تأخذ الحجّة من حمولاً وكان الشاب قد أخذ حجة من حمولاً ، وهو رئيس نهاوند وما علمت .

فورد على الشاب أمر عظيم وخجل . فلمّا رأى الشيخ ما حلّ به عطف عليه وقال : ارجع إلى سؤالك . ثمّ قال أبو سعيد : كنت أراعي شيئاً من هذا الأمر في حداثتي فسلكت بادية الموصل فبينا أنا سائر سمعت حسّاً من ورائي ، فحفظت قلبي عن الالتفات فإذا الحسّ قد دنا منّي وإذا بسبعين قد صعِدا على كتفي فلحَسا خدّي فلم أنظر إليهما حين صعدا ولا حين نزلا .

وعن علي بن حفص الرازي قال : سمعتُ أبا سعيد الخرّاز يقول : ذنوب المقرّبين حسنات الأبرار .

وعن أبي محمد الجريري قال : سمعتُ أبا سعيد الخرّاز يقول في معنى قول النبي ﷺ : «جبِلت القلوبُ على حُبّ من أحسَن إليها» : يا عجباً لمن لم يرَ محسناً غير الله ، كيف لا يميل بكلّيته إليه ؟

وعن العباس بن أحمد الرملي قال : قال أبو سعيد الخرّاز المعرفة تأتي القلوب من جهتين : من عين الجود ، ومن بذل المجهود .

وعن أحمد بن عبد الله قال : قال أبو سعيد الخرّاز : إذا بكت عين الخائفين فقد كاتبوا الله بدموعهم .

وعن أحمد بن محمد الزيادي قال : سمعت أبا سعيد الخرّاز يقول : العافية سترَت البرَّ والفاجر ، فإذا جاءت البلوى يتبيّن عندها الرجال .

وقال أبو بكر الشقاق : سمعت أحمد بن عيسى الخرّاز يقول : كنت يوماً أمشي في الصحراء فإذا قريب من عشرة كلاب الرعاة شدّوا عليّ . فلمّا قربوا منّي جعلت أستعمل المراقبة فإذا كلب أبيض قد خرج من بينهم وحمل على الكلاب فطردهم عنّي و لم يفارقني حتى تباعدتْ عنّي الكلاب ثمّ التفتّ فلم أرَه .

قال أبو سعيد : وكان لي معلّم يختلف إليّ يعلّمني الخوف ثمّ ينصرف . فقال لي يوماً : إنّي معلّمك خوفاً يجمع لك كلّ شيء . قلت : ما هو ؟ قال : مراقبة الله عزّ وجلّ .

أسند أبو سعيد عن عبد الله بن إبراهيم الغفاري وإبراهيم بن بشاري صاحب إبراهيم بن أدهم .

وصحب بشر بن الحارث وسرياً وذا النون وأبا عبد الله الساجي وأبا عبيد السري ونظراءهم .

وتوفّي في سنة سبع وسبعين وقيل ستّ وثمانين ومائتين[1] .

7 ـ أبو سليمان الداراني ، عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبسيّ

أحد الأوتاد والأقطاب ، مات سنة عشرة ومائتين . (ذكره ابن الجوزي وابن العماد والخطيب البغدادي فيمن توفّي في سنة خمس ومائتين ؛ والنيسابوري سنة خمس عشرة ومائتين) .

من جملة أقواله قصّتان لافتتان :

قال ابن أبي الحواري : «دخلت عليه يوماً وهو يبكي ، فقلت له : ما

1 انظر : صفة الصفوة ، (1/595-597) .

يبكيك؟! ، فقال: يا أحمد ولم لا أبكي؟! إذا جُنّ الليل، ونامتِ العيون، وخلا كلّ حبيب بحبيبه، إفترش أهل المحبّة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وقطرت في محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه فنادى: يا جبريل! بعيني من تلذّذ بكلامي، واستراح إلى ذكري، وإنّي لمطّلع عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم، فلم لا تنادي فيهم، يا جبريل: ما هذا البكاء؟! هل رأيتم حبيباً يعذّب أحبّاءه؟ أم كيف يجمل بي أن أعذّب قوماً إذا جنّهم الليل تعلّقوا بي؟ فبي حلفت! ، إذا وردوا على القيامة لأكشفنّ لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليّ، وأنظر إليهم!») .

«وقال: بينما أنا مار في طريق بيت المقدس، إذ رأيت امرأة عليها جُبّة مسح، وعلى رأسها خمار صوف، وهي جالسة، ورأسها بين ركبتيها، وهي تبكي. فقلت لها: ما أبكاكِ يا جارية؟ فقالت: يا أبا سليمان! وكيف لا أبكي وأنا أحبّ لقاءه؟! . فقلت لها: ما تحبّين؟ فقالت: وهل يحبّ المحبّ غير لقاء المحبوب؟! . فقلت لها: ومن محبوبكِ؟ فقالت: علاّم الغيوب! قلت: كيف تحبّينه؟ فقالت: إذا صفيت نفسك من العيوب، وجالت روحك في الملكوت، عند ذلك تصل إلى محبّة المحبوب. فقلت: فكيف يكونون في محبّتهم له؟ فقالت: أبدانهم نحيلة، وألوانهم متغيّرة، وعيونهم هاطلة، وقلوبهم واجفة، وأرواحهم ذائبة، وألسنتهم بذكر محبوبهم لَهِجَة. قلت: من أين لكِ هذه الحكمة التي تنطقين بها؟! قالت: بصفاء الودّ وحسن المعاملة. ثمّ أنشأت تقول:

قد كتمتُ الهوى فباحَ بسرّي ... عبراتٌ من الجفون تسيلُ

ثمّ قالت: أواه!، أواه!. وأنشأت تقول:

كتب الدمع فوق خدّي سطوراً ... كلّ وجد بمن هويتُ قليلُ
اعذروني إذا بليت من الوجـ ... ـدِ فما لي إلى العزاءِ سبيلُ
إن دمعي لشاهدٌ على الحبِّ ... دَليل بأن حزني طويلُ

ثمّ قامت ودخلت في واد بين الجبال، وأنا أنظر إليها[1].

8 ـ محمد بن المبارك الصُّوري

ومنهم ذو العقل الوافي، والورع الصافي، والبيان الشافي، أبو عبد الله محمد بن المبارك الصّوري، رحمه الله.

حدّثنا محمد بن أصبع بن الفرج قال: سمعتُ محمد بن المبارك الصوري يقول: بينما أنا أجول في بعض جبال بيت المقدس إذا أنا بشخصٍ منحدر من جبل فقابلت الشخص فإذا امرأة عليها مدرعة من صوف وخمار من صوف، فلمّا دنتْ منّي سلّمت عليَّ فرددت عليها السلام. فقالت: يا هذا من أين أنت؟ قلت لها: رجل غريب. قالت: سبحان الله! فهل تجد مع سيّدك وحشة الغربة وهو مؤنس الغرباء ومحدّث الفقراء؟! قال: فبكيت. فقالت: أو لا يبكي العليل إذا وجد طعم العافية؟! قلت: فَلِمَ؟ قالت: لأنّه ما خدم القلب خادم هو أحبّ إليه من البكاء، ولا خدم البكاء خادم هو أحبّ إليه من الزفير والشهيق في البكاء. قلت لها علّميني رحمك الله فإنّني أراكِ حكيمة. فأنشدت وهي تقول:

دنياك غرارة فدعها ... فإنّها مركبٌ جموح
دون بلوغ الجهول منها ... منيته نفسه تطيح

1 انظر: طبقات الأولياء (271–272).

لا تركب الشرّ واجتنبه   فإنّه فاحش قبيح
والخير فاقدم عليه ترشد   فإنّه واسع فسيح

فقلت لها: زيديني رحمك الله. فقالت: سبحان الله أو ما كان في موقفنا هذا ما أغناكَ من الفوائد عن طلب الزوائد؟ قال: قلت: لا غنى بي عن طلب الزوائد. قالت: حبّ ربّك شوقاً إلى لقائه فإنّ له يوماً يتجلّى فيه لأوليائه».

وقد وصفه الإمام المناوي بـ«العابد، الزاهد، الراكع الساجد، ذو العقل الوافي والورع الصافي، والبيان الشافي»[1]. كان سمتُه صحيحاً وخُلُقُه سجيحاً.

قال محمد بن المبارك الصوري رحمه الله: «خرجنا في سنة خمسين ومائتين حجّاجاً، فإذا بشاب ليس معه زاد ولا راحلة. فقلت له: في مثل هذا الطريق بلا زاد ولا راحلة؟ فقال: هل تحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، وقرأت بعد البسملة: ﴿كهيعص﴾ [مريم: 1] فشهق شهقة خرّ مغشياً عليه، ثمّ أفاق، فقال: ويحك! تدري ما قرأت؟ كاف من كافٍ، وهاء من هادٍ، وياء من مهيمن، وعين من عليم، وصاد من صادق. فإذا كان معي كافٍ وهادٍ ومهيمنٍ وعليمٍ وصادقٍ ما أصنع بزاد وراحلة، ثمّ ولّى، وهو يقول:

«يا طالب العلم هَهُنا وهنا   ومعدن العلم بين جنبيكا
إن كنتَ ترجو الجنان تسكنها   فمِثل العرض نصب عينيكا
إن كنت ترجو الحسانَ تخطبها   فاسبلِ الدمع فوق خدّيكا
وقُم إذا قامَ كلّ مجتهدٍ   يدعوه كيما يقول لبّيكا»[2]

1 انظر: الكواكب الدرية، رقم (281)؛ وفي الطبقات الصوفية، (4/371-372).
2 انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (9/311).

9ـ أبو الحارث الأولاسي

واسمه فيض بن الخَضِر كان شاباً يغنّي في أوّل أمره وقال: بينا أنا في غفلتي رأيت عليلاً مطروحاً على قارعة الطريق، فدنوت منه فقلت: هل تشتهي شيئاً؟ قال: نعم رمّاناً. فجئته برمّان فلمّا وضعته بين يديه رفع بصره وقال: تاب الله عليك. فما أمسيتُ حتى تغيّر قلبي عمّا كنت عليه، وخرجتُ إلى الحجّ وأنا أسير بالليل إذ بقوم يشربون، فلمّا رأوني ذُهِلوا فأجلسوني وعرضوا عليّ الطعام والشراب. فقلت: أحتاج إلى البول فذهبتُ فوقعتُ في غابة فإذا سَبُعٌ. فقلت: اللهمّ إنّك تعلم ما تركتُ وممّا ذا خرجتُ وفيما ذا خرجتُ، فاصرف عنّي شرَّ هذا السبع، فولّى السبع، ودخلت مكة فلقيت بها من انتفعت به، منهم إبراهيم بن سعد العلويّ.

وعن الحسن بن خلف قال: قال لي أبو الحارث الأولاسي فيض بن الخضر: رأيت إبليس له جُمّة شعرٍ، فأقبلت أتملّقه، وأقول: ويحك ما أنا في هذا الخَلق؟ خلّني وربّي. فقال: هيهاتَ هيهاتَ! كيف أخلّيكَ وفيك وفي أبيك هلَكت! لا أو تهلِكوا معي. قال: فأخذتُ برأسه فجعلتُه على حَجر وأخذت بحلقه أخنقه ثمّ قلت: كيف أقدر على قتله وقد أخّره الله عزّ وجلّ إلى يوم القيامة؟ ولكن ارفُق به فجعلت أتملّقه وهو يأبى. فقلت له: دُلّني على ما ينفعني؟ فقال: أدلّك على السكّر والحُملان والجُوذابات والدنانير والدراهم أن تُكثر منها. فقلت له: يا ملعون أنا أسألك أن تدلّني على شيء ينفعني في أمر آخرتي، تدلّني على الدنيا وما أصنع أنا بهذا وما حاجتي إليه؟ فقال: من ههنا صار رأسي وحلقي في يدِك تُقلّبه كيف شئت وتلعب به. قلت: أفدتَني علماً، لا جرَم إنّي لأرجو أن لا أنال منها شيئاً إلاّ ما لا غِنى بي عنه فقال: إن تركتُك

فاصعد العقَبة وسأستعين عليك بولد جِنسك الذين زيّنت في أعينهم ما قبُح في عينِك فأجابوني إليه فبِهِم أستعين عليك فيأتوك من مأمنك .

توفّي أبو الحارث بطرسوس سنة سبع وتسعين ومائتين[1] .

10 ـ أبو بكر الورّاق

واسمه محمد بن عمر ، ويقال له الحكيم وأصله من ترْمذ لكنه أقام ببَلخْ .

وعن أبو بكر بن أجيد البلخي قال : سمعت أبا بكر الورّاق يقول : لو قيل للطمع مَن أبوك ؟ قال : الشكّ المقْدور ، ولو قيل : ما حِرفتك ؟ قال : اكتساب الذلّ ولو قيل : ما غايتك ؟ قال : الحِرمان .

وعن غيلان السمَرْقندي قال : دخلَ رجل على أبي بكرِ الورّاق فقال : إنّي أخاف من فلان . فقال : لا تخف منه فإن قلبَ مَن تخافه بيد مَن ترجوه .

وعن محمد بن حامد قال : قُلت لأبي بكر الورّاق : علّمني شيئاً يقرّبني إلى الله ، ويقرّبني من الناس . فقال : أمّا الذي يقرّبك من الله فمسألته ، وأمّا الذي يقرّبك من الناس فترك مسألتهم .

أسند أبو بكر الورّاق الحديث عن موسى بن حزام الترمذي[2] .

1 انظر : صفة الصفوة (436/2) .

2 انظر : صفة الصفوة (351/2-352) .

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

آدم : 11 .

إبراهيم (النبي) : 13 .

إبراهيم بن أدهم : 15 ، 31 ، 32 ، 34 ، 35 ، 37 ، 43 ، 57 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 67 ، 73 ، 75 .

إبراهيم بن بشار = إبراهيم الرمي : 70 .

إبراهيم بن جنيد : 35 .

إبراهيم بن سعيد العلوي : 79 .

إبراهيم الخواص : 48 ، 61 .

إبراهيم الغفاري : 75 .

الأبهري = رويم

أحمد بن فارس : 25 ، 43 .

أحمد الجريري : 52 ، 74 .

أحمد بن عبد الله : 74 .

أحمد بن عطاء : 25 .

أحمد بن أبي الحواري : 32 .

أحمد بن الغمر الحمصي : 33 .

أحمد بن أبان : 35 .

أحمد بن الجلاء أبو عبدالله : 26 ، 38 ، 59 ، 66 ، 67 ، 68 .

أحمد بن محمد الزيادي : 74 .

أحمد بن معيوق : 61 .

أبو إسحاق الغزاري : 62 .

أسماء بن خارجة : 33 .

إسرافيل المغربي : 16 .

إسرائيل (النبي) : 11 .

إسماعيل بن عبد الله الشامي : 71 .

أنس بن مالك : 34 .

ـ ب ـ

بشر بن مالك : 33 ، 75 .

بشر الحافي : 40 ، 45 .

بشر بن المنذر : 60 ، 61 .

بشر بن الحارث : 33 ، 75 .

ابن بطوطة : 10 ، 14 ، 47 .

أبو بكر القرشي : 34 .

أبو بكر محمد بن أحمد : 34 .

أبو بكر بن سفيان : 35 .

أبو بكر الوراق : 15 ، 59 ، 80 .

أبو بكر الكتاني : 43 .

أبو بكر بن أجيد البلخي : 80 .

أبو بكر الشقاق : 75 .

ـ ت ـ

أبو تراب عسكر بن الحصين : 38 .

أبو تراب النخشبي : 67 .

ـ ث ـ

ثوبان : 64 .

ثوبان = ذو النون .

- ج -

أبو جعد السائح : 17 ، 28 .
جنيد : 38 ، 40 ، 52 ، 73 .
ابن الجوزي : 9 ، 42 ، 26 ، 75 .
ابن جبير : 10 ، 14 ، 17 .
جبريل : 11 ، 76 .
الجرجاني = علي الجرجرائي
أبو جعفر الصيدلاني : 73 .
أبو جعفر المنصور : 62 .
جعفر بن نصر : 52 ، 72 .

- ح -

حاتم الأصم : 38 .
الحسين بن خلف : 79 .
أبو الحسن القرافي : 69 .
الحارث بن أسد : 52 .
أبو حمزة البغدادي : 39 .
حماد بن عبد الله الأقطع التيناني أبو الخير : 26 ، 59 ، 68 ، 70 .

- خ -

الخطيب البغدادي : 75 .

- د -

داود (النبي) : 27 ، 37 ، 53 ، 54 ، 56 .
داود الظاهري : 34 .

- ذ -

ذو النون : 15 ، 17 ، 23 ، 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، 39 ، 41 ، 44 ، 52 ، 59 ، 63 ، 46 ، 67 ، 66 ، 75 .

- ر -

رسول الله (ﷺ) : 11 ، 29 ، 34 ، 38 ، 44 ، 63 ، 67 ، 69 .
رابعة العدوية : 33 ، 37 .
رويم بن أحمد الأبهري : 34 .
ريحانة المجنونة : 24 .

- ز -

ابن الزيات : 9 .
زرقان (أخو ذي النون) : 11 ، 16 ، 21 ، 23 .

- س -

سالم : 20 ، 21 .
سباع الموصلي : 34 .
سراج الدين = (أبو الملقن)
السراج : 9 .
سري السقطي : 45 ، 52 ، 71 ، 72 ، 75 ، 76 .
أبو سعيد الخراز : 15 ، 43 ، 59 ، 66 ، 73 ، 74 ، 75 .
أبو سعيد الخدري : 33 .
سفيان الثوري : 60 .
السلمي : 21 ، 67 .
أبو سليمان الداراني : 24 ، 38 ، 39 .
سليمان الخواص : 61 .
سليمان بن داود (النبي) : 61 .
سمنون : 40 .
سويد بن الحارث : 38 .

- ش -

شعران المغربي : 24 .
شقيق ابن إبراهيم بن أدهم : 31 .

الشعراني (أبو المواهب) : 66 .
شيبان المصاب : 9 ، 20 ، 21 .

- ص -

صالح المرّي : 24 .

- ط -

طاهر المقدسي : 23 .

- ع -

عبد الله بن مبارك : 38 .
عبد الله بن هشام : 37 .
أبو عبد الله بن الساجي : 75 .
أبو عبد الله بن خفيف : 51 ، 52 .
أبو عبد الرحمن الأزدي : 41 .
أبو عبد الرحمن المغازلي : 16 .
عباس المجنون : 17 ، 20 ، 23 ، 24 ، 25 .
عباس بن المهتدي : 43 .
أبو عبيد البسري : 11 .
أبو عثمان المغربي : 52 .
عثمان بن محمد العثماني : 52 .
ابن عربي : 15 ، 28 ، 29 ، 45 ، 48 .
علي بن أبي طالب : 29 .
علي الجرجرائي : 9 ، 40 ، 59 ، 71 ، 72 .
أبو علي الروزباري : 51 .
أبو علي الدقاق : 33 .
علي بن سياخف : 28 .
علي بن عبد الله : 25 .
علي بن أحمد الناقد : 25 .
علي بن بكار : 32 .
علقمة بن سويد الأزدي : 38 ، 41 .
ابن العماد : 75 .
أبو عمر الدمشقي : 67 .
عون بن إبراهيم : 34 .
عيسى بن يونس المصري (المعروف بالزاهد) : 51 .
عيسى بن أبي الخير : 27 .

- غ -

الإمام الغزالي : 13 ، 19 ، 25 ، 27 ، 36 ، 51 ، 53 .
غيلان السمرقندي : 80 .

- ف -

فتح بن شخرف : 65 .
أبو فروة السائح : 35 .
أبو الفضل العباس (ابن الشاعر) : 73 .
فضيل بن عياض : 60 .
فيض بن خضر الأولاسي (أبو الحارث) : 17 ، 33 ، 79 .

- ق -

القاسم بن عبد السلام : 61 .
أبو القاسم بن مروان : 73 .
القزويني : 10 .
القشيري النيسابوري : 16 ، 28 ، 29 ، 33 .

- ل -

لسان العرب الخطيب : 21 .

- م -

المتوكل بن حسين (العابد) : 35، 37، 38 .
محمد بن الحسن : 25 .
محمد العبدي : 34، 37 .
محمد بن الحسين البرجلاني : 35 . ، 37 .
محمد بن حسان : 17، 44 .
محمد الواسطي : 52 .
محمد بن عمر الوراق : 59، 80 .
محمد بن يحيى النيسابوري : 71 .
محمد بن مبارك الصوري : 16، 23، 33، 38، 77 .
محمد بن أصبع الفرج : 77 .
ابن مسعود : 11، 13، 48 .
مسكين الصوفي : 35، 37 .
ممشاد الدينوري : 48 .
مصطفى عبد القادري : 23 .
مضاء بن عيسى : 32، 34 .
مقدسي : 10، 17 .
ابن ملقن : 23، 60 .
موسى (النبي) : 13 .
موسى بن حزام الترمذي : 80 .
ميشال حايك : 13 .
ميكائيل : 11 .

- ن -

النصر الأباذي : 38، 44 .

- ي -

يحيى بن معاذ : 38، 45 .
ياقوت الحموي : 10 .
أبو يزيد البسطامي : 24 .
يوسف الرازي : 21 .
أبو يعقوب المزابلي : 40 .
يوسف بن الحسين : 35 .
يونس بن سليمان البلخي : 60 .

فهرس الأماكن

- أ -

إنطاكية (جبال) : 26 .
الأقرع (جبل) : 10، 16 .
انطلياس : 5 .

- ب -

بلح : 80 .
بيت المقدس : 33، 76، 77 .
بغداد : 72 .
بيروت : 41 .

- ت -

ترمذ : 80 .
تنيس : 70 .
تينات : 68 .

- ج -

الجنة : 60، 78 .
جزيرة : 60 .
جيزة : 66 .
جبال الشام : 9، 37 .
جبل المقدس = جبل لبنان .

- خ -

خراسان : 61 .

- ح -

حدشيت : 15 .

- د -

دمشق : 68 .
دير الصليب : 15 .
دير مار الياس : 5 .

- ر -

الرباط : 71، 72 .
الرملة : 51 .

- س -

ساحل البحر : 10، 19، 43 .
ساحل بحر الشام : 15، 16، 20، 25، 40، 43، 56 .
سواحل بلاد الشام : 9، 25، 60 .

- ش -

الشام : 13، 14، 21، 43، 67 .

- ص -

صور : 9، 50، 51، 60، 61 .
صيدا : 9، 43 .

- ط -

طرابلس (لبنان) : 9، 31 .

طرسوس : 80 .

- ع -

عبادان : 71، 72 .

العرج : 14 .

- ل -

لبنان (جبل) : 5، 6، 9، 10، 13، 14، 15، 16، 17، 19، 21، 23، 26، 27، 28، 33، 35، 37، 40، 44، 47، 53، 54، 56، 57، 68 .

اللكّام (جبل) : 25، 72 .

- م -

مدفلة : 61 .

المصيصة : 61، 68 .

مكة : 60 .

الموصل : 69، 74 .

منبج : 23 .

- ن -

نهاوند : 73، 74 .

نيسابور : 75 .

- و -

الوادي المقدس : 46 .

المراجع

- **الفتوحات المكّية** لابن عربي ، دار صادر ، بيروت (د . ت .)
- **الرسالة القشيريّة** تأليف طلحة القشيري النيسابوري (377-465هـ) شرح وتقديم نوّاف الجرّاح . دار صادر ، بيروت 2001 .
- **مصارع العشّاق** لابن الحسين السرّاج . دار صادر ، بيروت (د . ت)
- **التعرّف لمذهب أهل التصوّف** لأبو بكر محمد الكلاباذي . دار صادر ، بيروت ، 2001 .
- **البصائر والذخائر** لابن حيّان التوحيدي (414هـ) ، تحقيق الدكتورة وداد القاضي . دار صادر ، بيروت (د . ت) .
- **صفة الصفوة** للامام ابن الجوزي (508-597هـ) دار الجيل ، بيروت 1992 .
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** للشافعي (530هـ) ، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997 .
- **القصّاص والمذكّرين** لابن الجوزي القرشي البغدادي (508-597هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1986 .
- **طبقات الأولياء** لابن الملقن ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت 1998 .
- **روضة التعريف بالحبّ الشريف** للسان الدين الخطيب ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت 1968 .
- **التشوّف لأهل التصوّف** لابن الزيّات ، الرباط ، 1958 .
- **معجم البلدان** لياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ،1957 .
- **رحلة ابن بطوطة** ، دار صادر ، بيروت ، 1998 .
- الأب ميشال حايك ، **لبنان الجبل المقدّس عند المسلمين** ، مجلّة «اللقاء» ، عدد 4 ، 1988 ، 52-69 .

ـ **آثار البلاد وأخبار العباد** ، تصنيف الامام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني . دار صادر ، بيروت (د . ت) .

ـ **رحلة ابن جبير** ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .

ـ **إحياء علوم الدين** للامام الغزالي ، قرأ النصّ وحرّره وصحّحه وكتب تقدمة له الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، دار صادر ، بيروت ، 2000 .

ـ **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .

ـ **مكاشفة القلوب المقرّب من علاّم الغيوب** ، دار البشائر ، بيروت ، 2001 (طبعة سابعة) .

ـ **حكاية الصوفية** ، الطبيب الشيخ محمد أبو اليسر عابدين ، دار البشائر ، 1413هـ–1993م .

ـ **الكواكب الدريّة في تراجم السادة الصوفيّة** ، الطبقات الكبرى ، تأليف زين الدين ، محمد عبد الرؤوف المناوي (952–1021هـ) ، تحقيق محمد أديب الجائر ، دار صادر ، بيروت، 1999 .

ـ **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار** ، في الأدبيات والنوادر والأخبار للشيخ الأكبر العارف بالله ، العلاّمة محيي الدين بن عربي المتوفّي سنة 638هـ . ، دار صادر ، بيروت (د . ت) .

فهرس الكتاب

تمهيد.. 5

مقدمة التحقيق.. 9

من هم الأبدال ؟.. 11

جبل لبنان وتحديده جغرافياً في زمن المتصوّفين.. 13

نصوص تاريخية وكتابات جدارية.. 14

مظهر المتصوّفين ومسلكهم.. 15

القسم الأول : مناحي العشق عندهم.. 19

الباب الأول : الشوق والهوى.. 20

1 ـ شيبان المولّه أو المصاب.. 20

2 ـ زرقان أخو ذي النون.. 21

3 ـ عبّاس المجنون.. 23

4 ـ عابد على ساحل بحر الشام.. 25

الباب الثاني : النحول والذبول.. 26

1 ـ حمّاد الأقطع التيتاني.. 26

2 ـ المشتاقون إلى الله.. 27

3 ـ عابد آخر.. 28

الباب الثالث : الجود والسخاء.. 29

1 ـ إبراهيم بن أدهم.. 31

2 ـ عابد آخر.. 33

الباب الرابع : الحزن والأنس 33
1 ـ عابد محزون في جبل لبنان 35
2 ـ عابد آخر في جبل لبنان 35
الباب الخامس : الزهد 37
1 ـ عجوز عمياء 37
2 ـ شيخ زاهد بساحل دمشق 38
الباب السادس : التصوّف والمسيرة إلى الله 39
1 ـ علي الجرجرائي 40
2 ـ عابد من أهل بيروت 41
3 ـ امرأة ببعض سواحل الشام 41
4 ـ عابد آخر على ساحل بحر الشام 43
5 ـ إبراهيم بن أدهم ومحاورته مع اعرابي 43
الباب السابع : الغيرة والحبّ 44
1 ـ عابد شاب 44
2 ـ عابد آخر 44
3 ـ رجل عابد 45
الباب الثامن : الفقر 45
1 ـ فقير مجهول 47
2 ـ إبراهيم بن أدهم 47
3 ـ موت فقير 48
الباب التاسع : المراقبة 51
1 ـ اثنان في صور 51
الباب العاشر : المشتاقون إلى الله 53
خلاصة 56
القسم الثاني : سيرة أولياء وأعلام السيّاح المذكورين في جبل لبنان 59
1 ـ إبراهيم بن أدهم يكنّى أبا إسحاق 60

2 ـ ذو النون المصري 63
3 ـ أبو عبد الله الجلاّء 67
4 ـ حماد بن عبد الله الأقطع التيتاني، أبو الخير 68
5 ـ علي الجرجرائي 71
6 ـ أبو سعيد الخرّاز 73
7 ـ أبو سليمان الداراني 75
8 ـ محمد بن المبارك الصوري 77
9 ـ أبو الحارث الأولاسي 79
10 ـ أبو بكر الورّاق 80
ـ فهرس الأعلام 81
ـ فهرس الأماكن 85
ـ المراجع 87